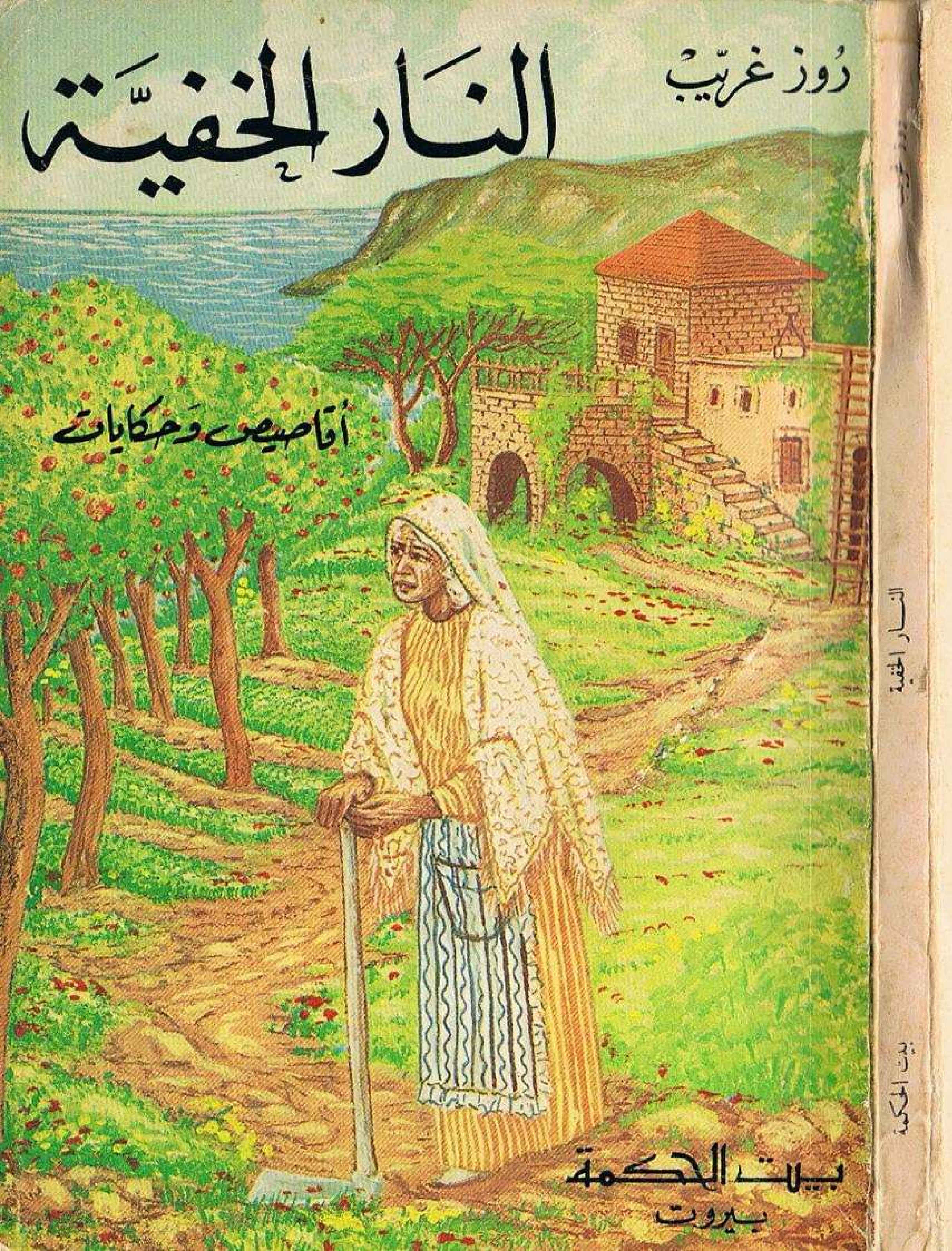


النار الخفية

بيت الحكمة

منشوراتنا القصصيّة

تضم طائفة من قصص الحياة والناس لفريق من الأدباء المعروفين بصقل المعنى الجميل في الكلمة الجميلة، فتعرض أمام القارئ نخبة من أروع الموضوعات من ماضي الانسان وحاضره، بين واقعي وخيالي، في اطار من نظافة العقل، ونبل القلب، وابداع الخيال، وبلاغة الأسلوب.

يصدرها: بيت الحكمة - بيروت

١	يا بياع السمسمية	لجوزفين وانطوان مسعود	١٥٠ ق. ل.
٢	ابو الخيمة الزرقاء	لجوزفين وانطوان مسعود	١٥٠ ق. ل.
٣	حدثني يا أبي	لكامل العبد الله	٣٠٠ ق. ل.
٤	أسرى الغابة	لانطوان مسعود	٣٠٠ ق. ل.
٥	ملح ودموع	لانطوان مسعود	١٥٠ ق. ل.
٦	يوم عاد أبي	لرشاد دارغوث	١٥٠ ق. ل.
٧	صندوق أم محفوظ	لروز غريب	١٥٠ ق. ل.
٨	جدتي	لجبران مسعود	٢٠٠ ق. ل.
٩	عنب تشرين	لادوار البستاني	١٧٥ ق. ل.
١٠	عازفة الكمان	لصموئيل عبد الشهيد	١٥٠ ق. ل.
١١	وكان مازن ينادي	لتوما الخوري	٢٠٠ ق. ل.
١٢	كانت هناك امرأة	لرشاد دارغوث	١٥٠ ق. ل.
١٣	يوم غضبت صور	لنضال ابي حبيب	٢٥٠ ق. ل.
١٤	بابا مبروك	لرشاد دارغوث	١٢٥ ق. ل.
١٥	الانامل السحرية	لجوزفين مسعود	١٥٠ ق. ل.
١٦	المغني الكبير	لروز غريب	٢٥٠ ق. ل.
١٧	جلجامش	لتوما الخوري	٣٠٠ ق. ل.
١٨	نور النهار	لروز غريب	١٧٥ ق. ل.
١٩	النسر الكريم	لانطوان مسعود	١٥٠ ق. ل.
٢٠	رنين الخناجر	لجوزفين مسعود	١٥٠ ق. ل.
٢١	النجمتان	لروز غريب	١٥٠ ق. ل.
٢٢	ابن العروس	لجوزفين مسعود	٢٥٠ ق. ل.
٢٣	جزيرة الوهم	لاملي نصرالله	٢٢٥ ق. ل.
٢٤	الغرفة السرية	لصموئيل عبد الشهيد	٢٠٠ ق. ل.
٢٥	النار الخفية	لروز غريب	٢٧٥ ق. ل.

الثمن ٢٧٥ ق. ل.

رُوز غريّب

النّارُ الخفيّة

أقاصِيص وَحِكايات

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « زكريا كايا »

الطبعة الأولى ، بيروت – لبنان ، نيسان (ابريل) ١٩٧٣

السَّجَّادَة

ها إنَّ أشعَّة الشمس تكاد تغمرُ جميع السُّطَيحة المواجهةِ للبحر في منزل « سعدى » أمِّ « جميل » الحدّاد . وها هي صاحبةُ الدار تقف بجانب النافذة تنتظر مرور موزِّع البريد ، لعلَّه يأتيها بمكتوب من ابنها المغترب في « البرازيل » منذ ستِّ سنوات. ومع أنَّ الابن لا يكتب إلاّ مرَّتين أو ثلاثاً في السنة ، فقد تعوَّدت أن تقف هناك كلَّ يوم قُبَيل الظُّهرِ حينَ مرور الموزِّع . « إنَّه نشيطٌ وطيِّب النَّفْس ، هذا الموزِّع » ، تفكِّر « أمُّ جميل » وهي تُصغي إلى خطواته الثقيلة على الطريق المزفَّتة . « كلَّ يوم يمرُّ من هنا على الوقت من غير تأخُّر ، وإذا لم

يأتِني بمكتوب فليس الذنْب ذنبه » .

ثم تُقفل النافـذة وتُسرع إلى المطبخ لتنهمك في إعداد غذائها البسيط المؤلّف مِن قطعة لحمٍ ، مـع قليـل من الخضار الذي ينتجـه بستانها الوحيد القائم بجانب المنزل . فإذا انتهت من عملها في المطبـخ ، وتناولت طعامها ، لم يبقَ عليها سوى أن تجلس في غرفتها وتستريحَ ، لأنّ عشاءها ينحصر في قليل من الجُبن والخبز والزيتون ، ولا يحتاج إلى تحضير . أمّا البستان فقد انتهت من تعشيبه وسَقيِـه ، وسيأتي غداً أصحابُ الدكاكين بسِلالهم فتقطِف لهم مـا بقي هناك من البرتقال واللّيمون الحامض .

ألوقتُ ربيع ، وقـد أنجزت نكش البستانِ في الأسبوع الماضي ؛ لكنّها لا تَبخَلُ عليه بزيارة في كلّ يوم لتقطع هنـا غصناً يابساً ، وهنـاك عُشبةً نابتة في الجدران أو في مَساقي الأشجـار . لأنّ هذا البستان مصدرُ حياتها ، تزرع فيه كلّ ما

تحتاج إليه من خُضرة وبَقْل ، وتبيع ما ينتجه من أثمار ، فتشتري ما يُعوزها من مَؤونة ، وتخزُن النقود التي تفيض عن حاجتها .

تجلِس « أمُّ جميل » بجانب الشبّاك ، وتراقب براعم الليمون وقد أخذت تتفتّح وتفوح رائحتُها المنعشة . ها إنّ العيد الكبير على الأبواب ، وعمّا قليلٍ يجب أن تَشرع في ما تسمّيه « عزيل العيد » ، أو التنظيفة الكبرى التي تُحدِثها في بيتها كلّ سنة . تبدأ بتنظيف الخزائن والصناديق ، فتُخرج منها البُقَج والصُّرَر الملوّنة ، وأكداسَ الشّراشف والأغطية والحرامات ، وتمسح الغُبار الذي داخَلَ الأثاثَ ، ثم تعيد البقج والصّرر والأكداس إلى أماكنها . لكنّها تلاقي أشدّ التعبِ من تنظيف « البوفيه » ، أو خزانةِ الصُّحون ، لأنّ هذه الخزانةَ عالية جدّاً تكاد تبلُغ السقفَ ، وعليها أن تصعد على الكرسيّ لتُنزل ما على الرفوف من كبّايات ملوّنة ، وقُماقمَ منقوشةٍ ، وأباريقَ ، وطُسوت ، وشمعدانات فضيّة ، ونراجيلَ ذاتِ قلوبٍ نُحاسيّة ،

وغير ذلك من أشياء ثمينةٍ ورَثتْها عن أشخاص
كثيرين ماتوا قبلَها . ورغم التعب الذي تلاقيه تشعر
بلذّة فائقة حين تغسل الأواني الزجاجيّة بالماء
والصابون ، وتفرُكُ القِطع النحاسيّة بالرّمل
والحامض ، وتضعها صفوفاً على السطيحة لكي
تَنشَف في الشمس وتصبحَ لامعة كالذهب .

إنّها تفرح برؤية هذه الأشياء ، مع أنّها لا
تستعملها قطُّ في حياتها . فهي تشرب بإبريق الفخّار
وتترك الكبّايات الزجاجيّة الملوّنة حيث هي ؛
وتنام على شرشف قديم مرقّع وتحفظ الشراشف
الجديدة نظيفةً مطويّة ، وتتناول طعامها لُقماً
بأصابعها وتترك الملاعق والشُّوك الفضيّة ملفوفة
بالأوراق في الجوارير . ذلك لأنّ « لأمّ جميل »
فلسفتَها الخاصّة في الموضوع ، وهي أنّ الأمتعة
وقطع الأثاث إنّما يقتنيها الإنسان ويكدّسها في بيته
ليستمتع بمنظرها ، لا ليستعملها في قضاء حاجاته !
« كلُّ شيء خيرٌ من ابن آدم » ، تردّد « أمّ جميل »

وهي تتذكّر أصحاب هذه الأواني الذين ماتوا . « كلّ
شيء خير من ابن آدم » . لا شكّ أنّها تحبّ هذه
الأواني لأنّها أثبتُ من البشر وأطول عمراً . هذا
الصندوق الملآن بالبُقَج ورثته عن أمّها المتوفّاة منذ
زمن بعيد . أمّا « البوفيه » الكبيرُ فقد ورثه زوجها
المرحوم عن أمّه العجوز ، ولم يكن فيه إذ ذاك
سوى نصفِ الأشياء التي فيه الآن ، وما بقي فقد
اشترته هي قطعةً قطعة بكدّها وتوفيرها . لقد كان
بودّها أن تشتري أشياء أخرى ، وتحقّقَ تلك
الآمال الواسعة التي رافقتها منذ صباها ، ولكنْ
خانها الحظّ وتنكّر لها الدهر . فمَن كان يظنّ أنّ
زوجها الحدّاد ، الضخمَ الجثّة ، الذي كانت ذراعه
أصلبَ من الحديد الذي يعالجه ـ من كان يظنّ أنّ
الموت سيختطفه بين ليلة وضحاها ، ويتركها وحيدة
كسيرةَ النفس ، مع أنّها كانت دائماً تعتقد أنّها ستموت
قبله ، فيتزوّج بعدها امرأة تلِد له أولاداً كثيرين لأنّه
لم يُرزق منها سوى بنت وصبيّين ؟ مات أصغرُهما
في سنّ الطفولة ، وتزوّجت البنت في سنٍّ مبكرة ،

وبقي ابنها الآخر « جميل » وحيداً يمارس الحدادة مع أبيه . وحين رأى الشُّغل قد تأخَّر خطر له أن يسافر إلى « أميركا » أُسْوةً برفقائه من الشبّان . وقد توسَّل إليه والداه أن يَعدِل عن السفر ، وحاولا إقناعه حيناً بالبكاء وحيناً بالصياح والتوبيخ ، فلم يقتنع ، بل أصرَّ على السفر . ولم يمضِ زمن حتى تركهما وسافر إلى « البرازيل » غيرَ مشفقٍ على وحدتهما وشيخوختهما . وتوفِّي الأب بعد ذلك بقليل ، فاصاب المرأةَ يأسٌ شديد ، وكادت تموت من الحزن ، لو لم تجد بعض التعزية في بنتها « أسماء » التي تأتيها كلَّ أحد هي وأولادها وتنفق عندها ساعة من الزمن .

لكنَّ « لأمّ جميل » تعزيةً أخرى تجدها في النقود التي جمعتها ممّا توفّره من غلَّة البستان ، وممّا تقتِّره على نفسها منذ خمس سنوات مضت . ولقد صحَّ عزمها ، بعد حيرة وتفكير ، أن تشتري بتلك النقود سجّادةً عجميّة كبيرة تكسو بها معظم

الرَّدهة التي في منزلها . قد رأت مثل هذه السجّادة عند جارتها « أنيسة » ، ومن ذلك الحين لدغتها عقارب الغَيرة ، وقرَّرت أن تشتري من « بيروت » سجّادة بحجمها فتزين بها البيت .

ولو سئلتْ لماذا تريد السجّادة لحَارت في الجواب . إنَّها تريدها لتُباهي بها أمام الناس ، وليرثها ابنها « جميل » حين يعود من « أميركا » . أمّا بنتها « أسماء » فلم تخطُر لها ببال . ولو علمت بنتُها بعزمها هذا لرمتها بالجنون وصاحت بوجهها قائلة : « ما حاجتك إلى السجّادة العجميّة ؟ هل يأتي لزيارتك المير بشير ؟ إنّك تحتاجين إلى تركيبة أسنان ، فأنفقي ما لديك على صنع التركيبة ، أو على تغيير أخشاب الدرج الذي تنزلين منه إلى البستان » . ستقول بنتها هذا وغيرَه ، ولا شكَّ أنّها مُحقَّة في ما تقول . فإنّ « أمّ جميل » بحاجة إلى أشياء ضروريّة قبل مشترى السجّادة : إنّها تحتاج إلى تركيبة ، وإلى درج خشبيّ جديد بدل الدرج المهدَّم الذي بجانب البستان ، وتحتاج

إلى معطف للشتاء ، وطرحة جديدة ، وحذاء ،
وأشياء أخرى كثيرة . ومع هذا فهي تتناسى كلّ
حاجاتها لتوفّر ثمن السجّادة . منذ بضعة شهور ،
إذ كانت تنزل الدرج الخشبيّ ، انكسرت إحدى
الدرَجات تحتها فوقعت وكسرت يدها ، وتألّمت من
الكسر مدّة طويلة . ومع هذا لم تفعل شيئاً سوى
ترقيع الدرجة المكسورة ، لأنّها لا تريد أن تنفق
شيئاً ممّا اقتصدته ثمناً للسجّادة !

*

أقبل العيد الكبير ، وانتهت « أمُّ جميل » من
تنظيف البيت ، فمسحت غبار الجدران بسعَفة
النّخيل ، وشطفت الأرض والأعتاب ، ونظّفت
قطع الأثاث ، حتى أصبح كلّ شيء حولها نظيفاً
لامعاً يُبهج العيون . وفي المساء عدّت نقودها التي في
الصرّة ، فإذا هي تبلغ نحو ثماني مئة ليرة ، أي انّها
تزيد على الثمن المطلوب .

وما جاء صباح العيد حتى فاجأت زوّارها
بسجّادة عجميّة كبيرة فرشتها في ردهة المنزل .
وحين سألوها : « من أين لك هذه السجّادة ؟ » أجابت
أنّ ابنها أرسل إليها كميّة من المال لكي تشتريها من
« بيروت » .

ظلّت « أمّ جميل » مدّة من الزمن مأخوذة بجمال
السجّادة : تنظّفها كلّ صباح بمِكنسة خاصّة ،
وتجلس ساعاتٍ طويلةً تتأمّل نقوشها وألوانها ،
وتخاف أن تدوسها برجليها ؛ فإذا جاء أولاد بنتها
لزيارتها منعتهم من دخول الردهة ، وجعلتهم يدخلون
البستان من الباب الخلفيّ لئلاّ يمرّوا بجانب السجّادة
أو يلامسوها بأرجلهم . وأرسلت إلى ابنها تخبره
بمشترى السجّادة العجميّة الكبيرة ، وتتمنّى
أن يعود قريباً إلى الوطن لتريه إيّاها ، وتقضيَ
وإيّاه بقيّة عمرها .

وورد إليها جوابُه بعد قليل ، فأخبرها أنّه

مريض ، وأنّـــه يبغي العودة إلى الوطن ، لكنّه مفلس ؛ ويطلب منها أن ترسل إليه نقوداً ليستطيع العودة .

بكت « أمّ جميل » ليلةَ وصول الكتـــاب ، وذرفت دموعاً لم تذرفها منذ وفاة زوجها . عليها أن ترسل إلى ابنها المبلغ الذي يطلبه ، أي إنّ عليها أن تبيع السجّـادة التي أنفقت السنوات العـديدة في جمع ثمنها وحرمت نفسها أشياء ضروريّة ! لكنّ الأبناء لا يُعدَلون برزق ولا بمـال . يجب أن يعود ابنها مهما كلّفها الأمر ! وستعيش وإيَّاه قانعـة بالكَفاف ، وستعوِّضها رفقته عن كلِّ خسارة .

في الصباح الباكر ذهبت إلى «بيروت» في البوسطة ، وباعت السجّادة وأواني أخرى نفيسةً ممّا خزنته في بيتها ، فاجتمع لديهـا نحو ألف ليرة أرسلتها إلى ابنها . ولبثت تنتظر جوابه .

وانتظرت طويلاً قبل أن جاءها الجواب ، وفيه



أنّ ابنهـا شُفي وتحسَّنت أحواله الماليّة ، وهو ينوي الزواج بفتاة برازيليّة ، ولا يدري متى يمكنه الرجوع إلى الوطن ...

٭

مرّت السنون ، وانقطعت مكاتيب الابن من « أميركا » . وتهدَّم الدرج وتهرّأت أخشابه . وأخذت « أمّ جميل » « تدور الدورة » لتصل إلى البستان ، أي تدخله من الباب الخارجيّ المطلّ على الزُّقاق . وتغيَّرت معالم الأشياء في بيتها ، وعبثت بها أيدي السنين .

ولكنّ في زاوية خفيّة من زوايا البيت صرّةً صغيرة ، تفتحها « أمّ جميل » مرّة أو مرّتين في الشهر لتعدّ ما فيهـا من نقود ، وتعاينَ تضخُّمها البطيء في خلال السنة . لأنّها ما تزال تؤمّل بمشترى سجّادة جديدة !..

... وتحطّمَ الصَّنَم !

باكراً رنّ جرس التلفون في غرفة السيّدة « جهان » ، صاحبةِ « المشغل العصريّ » للخياطة والتطريز القائمِ في إحدى ضواحي « بيروت » المزدحمة بالسكّان . إنّها الساعة الثامنة من صباح الأحد ، وهي لا تزال في فراشها . لقد صمَّمت على أن تأخذ لنفسها قِسطاً من الراحة في هذا النهار بالذات ، بعد أسبوع حافل بالنشاط تكاثرت فيه الأشغالُ التي كان عليها إنجازها قبل عطلة الأسبوع ، فاضطُرَّت إلى إرهاق نفسها بالعمل ، وإرهاقِ البنات العاملات عندها .

وأعاد الجرس رنينه ، فأمسكت السمّاعة

وقالت : « آلو » .

وما إن سمعت الصوت الذي خاطبها من الطرف الآخر حتى بُهتت وانعقد لسانها ، فلم تدرِ بمَ تجيب. أخيراً استطاعت أن تقول بصورة آليّة ، ومن غير تفكير :

ـ طيّب . أنتظرك اليوم بعد الظهر .

كانت هذه العبارة جواباً عن سؤاله : « أيمكن أن أراكِ اليوم يا « سُومة » ؟

« سُومة » ... منذ عشر سنوات لم ينادِها أحد بهذا الاسم !

كانت في بيت أبيها تدعى « سميَّة » ، وكان والداها وأخوها « سميح » ينادونها « سُومة » تحبُّباً ... والآن ، ها هو الاسم يعود بعد عشر سنوات، بل أكثر من عشرٍ ، يبعثه أخوها حيّاً على أسلاك التلفون . إنّه هو . صوته لم يتغيّر . هـذا الصوت الدافىء

الذي يوحي بالثقة ، لا يزال دافئاً عميقاً ؛ لكنّها تبيَّنت فيه أثر السنّ ، وفارَقه ذاك الصفاءُ القديم ، صفاء أيّام الشباب .

ماذا يريد منها بعد هذا الفراق الطويل ؟ أين هو الآن ، وكيف عرف بمقرِّها ؟ تُرى ، هل أصاب من النجاح ما كان يصبو إليه في صِغَره ، حين كان يحدِّثها عن نجم الحظّ ، نجمِ السعادة ، النجم الذي كان يؤمن به « نابليون » ، معبودُهما أيّامَ الحداثة ؟ كانت حينئذٍ ساذَجة غبيّة تعيش في جوّ من الأحلام ؛ كانت تبتهج بقصص « نابليون » و« عَنترة » و« وروكامبول » و « مونتي كريستو » و « جاك مِلتن » ، تتحمَّس لها مثل « سميح » أخيها ، بل أكثر منه . ويجمح بها الخيالُ فتتمثَّل أخاها واحداً من أولئك الأبطال الذين لمع نجمهم في التاريخ . كذلك سيلمع نجم أخيها ، ويستمرّ في الصعود ، لأنّه نظيرهم يؤمن بنجمه ، وعلى مثال « نابليون » يراه متألِّقاً في العشايا !..

وخطر ببالها السؤالُ : تُرى ، لماذا لم تفكّر في

نفسها حينذاك ؟ لم تحلم بأنّها تستطيع أن تحتذي
واحداً من أولئك الأبطال الذين عمروا مخيّلتها
الخصبة . كانت كلّ أحلامها عن أخيها الذي يأتي كلّ
يوم بحديث جديد ، أو بكتاب جديد يقرآنه معاً
ويتبادلان انطباعاتها عنه ، وما أكثرَها !

كان أحبَّ الكتب إليها كتابُ الثورة الفرنسيّة
الذي نقله « فرح انطون » عن « دوماس » . بلغ من
شغَفها بذاك الكتاب ذي المجلَّدات الثلاثة أنّها قرأته
مرَّتين ، ثم مرّة ثالثة . وفي أحد الأيّام عاد أخوها
إلى البيت فرآها أمام المرآة ، وقد التفَّت بردائها
الكستنائيّ ، وعقدت حول عنقها ربطة ضخمة ،
وحملت عصا طويلة شبيهةً بالرمح . كانت تمثّل دور
واحد من أبطال الثورة ، لعلّه « ميرابو » ، أو
« روبسبيير » . وقد أجادت تقليد زِيّ العصر ،
لأنّها كانت بارعة في الخياطة والأشغال اليدويّة ،
تبزُّ فيها رفيقاتِها في المدرسة . أمّا الأخ فارتسمت
على شفتيه حين رآها ابتسامةٌ هازئة ، وكبَت

ضحكةً خشنة امتعضَت لها « سميّة » . لماذا يهزأ بها ؟
ألم يكن مثلها متحمِّساً لكتاب « دوماس » ؟ لكنّها
سكتت وكتمت استياءها .

وَلِعا معاً بجمع الطوابع البريديّة ، وكانت فترة
من عمرهما أنفقا فيها كلَّ دقيقةٍ فراغ في السعي
وراء الطوابع : يَطرُقان أبواب الجيران والأصحاب ،
ينبُشان في سِلال المهمَلات ليكتشفا الغُلُفَ التي لم
تُنزع طوابعُها ، يركضان إلى آخر الدنيا ، يقومان
بكلّ خدمة مهما كانت شاقّة للحصول على طابع ثمين
وعدهما به أحد الأقارب أو المعارف .

حدَّثها « سميح » مرّة أنّه سيزور ، مع رفقاء له
من هُواة الطوابع ، رجلاً طاعناً في السنّ يملك
مجموعة كبيرة منها . وعاد بعد تلك الزيارة فأراها
بضعة طوابعَ نشلها من المجموعة في غَفلةٍ من
صاحبها الحسير البصَر . فوجمت برهة وأخذت
تفكّر : أيجوز للهواة أن ينشلوا الطوابع ؟ وهل
يجوز لمقترضي الكتُب أن يتناسَوا ردَّها إلى

أصحابها ، أو للمارّة أن يقطفوا ثمار البساتين المجاورة للطريق ؟ وأخذت تتأمّل في الطوابع الجديدة ، فقد كانت جميلة نادرة ! أمّا والداها فابتسما استحساناً أو استخفافاً .

في أحد الأيّام اختفت المجموعة التي كلّفها جمعُها وتنسيقها جهوداً ومشقّات جمّة . ماذا حدث ؟ أخبرها أنّه أعطاها لأحد أصحابه . كيف ؟ ولماذا ؟ ومن غير مشاورتها ؟

لقد بكت كثيراً ، وتألّمت كثيراً ! كانت هذه الطوابع جزءاً من حياتها ، بذلَت لأجلها من نشاطها ومن وقتها دون حساب . فكيف يتصرّف بها دون علمها ؟ أتُراه باعها ؟ هل أعطاها لأحد أصحابه مقابلَ هديّة ؟ لم يذكر لها البيع ، ولا الهديّة ، ولكنْ... أخذت تخامرها الشكوكُ . وظلّت مدّة تفكّر وتتألّم في سرّها ، ولم يخطر لها أن تناقش أخاها الحسابَ على تصرّفه هذا . وحاولَت أن تنسى الموضوع بمطالعة الكتب التي أهداها إيّاها جارٌ

مُسِنّ كان يجد في لعبة « الدريس » هوايتَه الكبرى ، ويرى في الكتب « صناديقَ محشوّة بالخرافات » .

★

وتمرّ الأيّام سِراعاً . أصبح أخوها شابّاً فارع الطُول ، مستطيل الوجه ، إذا وقفت بجانبه لم يكد يبلغ رأسُها كتفه . أخذ يُكثر من مخالطة رفقائه الشبّان ، ويغيب عن البيت أيّاماً ، ويقتصد في محادثتها ، لكنّها قنعت بمجالسته ساعاتٍ قليلةً خلال الأسبوع ، وظلّ الرفيقَ الذي تُفضي إليه بخواطرها، ويبادلها أحلامه وانطباعاته . كان ينقل إليها أخبار رفقائه وآراءه فيهم : « نديم » كاذب محتال ، وابن عمّه « فؤاد » يطلب الرزق من أيّ باب كان ، و « سليم » كثير الغرور والادّعاء ، يحلم بفتح العالَم ، وأحلامُه هَباء . كانت تصغي إلى كلامه وتستخفّ بأولئك الرفقاء ، وترى في أخيها الفتى المتفوّقَ الذي لا يدانيه أحدٌ من أترابه في الذكاء وصِدق النظر . لعلّ شعوره بالتفوّق أوحى إليه إيمانَه بالطبَقيّة ،

ومَيلَه إلى السُّخْر من الناس ، واحتقارٍ من يظنّه
دونه في الذكاء أو المنزلة الاجتماعيّة . أمّا هي فكانت
ترى الناس من طينة واحدة ، لا يتمايزون إلاّ
بالأخلاق . وطالما حاولت تبديل نظرته الضيّقة فلم
تنجح .

لا تنسى حين قَرَع نافذة غرفتها ليلاً ، فخافت
وكادت تصرخ من الرعب ، فهتف بصوت هامس :

– أنا « سميح » . إفتحي لي الباب ، وإيّاك أن
توقظي النائمين .

لقد عاد من سهرة طويلة في أحد المقاهي ،
وكتمت أمره عن والديه مقابل وعده إيّاها بأن لا
يعود إلى مثل تلك السهرة . كانت ليلةً من ليالي
الأعياد ، وقد أغراه بعض رفقائه بمصاحبتهم للسكر
والمقامرة . لكنّه تاب توبة صادقة بعد أن عاد فارغَ
الجيب ، وأصيب في اليوم التالي بوعكة ألزمته
الفراش . كان يشكو التهاباً في حلقه ومعدته ،
ويزعم أنّه لن يشفيه سوى الماء المثلّج ، فذهبت إلى

آخر البلدة لتبتاع له مقداراً من الثلج دفعت ثمنه
من جيبها .

كم مرّةٍ أقرضته ما لديها من نقود قليلة كسبتها
من بيع أشياء قديمة تخصّها ، أو من حياكة ملابسَ
صوفيّة ، أو صنعِ أقمشة مطرّزة ! كان يتظاهر
بأنّه يريد ردّ النقود ، ويطلب إليها بإلحاح أن تقبلها
منه ، وهو عالم بأنّها لن تقبلها . ولو قالت نعم
لأُسقِط في يده ، لأنّ جيبه كان فارغاً ؛ وكانت
تعرف ذلك ، فتصطنع الرفض لتمكّنه من اصطناع
الوفاء .

حين بلغت العشرين جاءها بعض الخاطبين . كانوا
يتّصلون بوالديها ، أو يرسلون بعض أقاربهم لخِطبتها .
وقرّ رأيها يوماً ، بالاتّفاق مع والديها ، على أن ترضى
بواحد منهم ؛ لكنّها سمعَت أخاها يقول :

– من هو هذا الرجل ، وما الذي يُعجبكم
فيه ؟... ماديّ ، طمّاع ، طالب مال ، كلّ رغبته
في البائنة لا في « سميّة » ...



ورُدَّ الطالب على أثر هذه التهمة . ثم كان مرض أبيها الطويل ووفاته المؤلمة . لقد خيَّم الحزن على الأسرة ، واجتمعت قلوبهم على البكاء والحداد . وفي غمرة حزنهم ترامى إلى سمع الفتاة خبرٌ نزَل عليها كالصاعقة : كان أخوها قد اتّفق مع أحد المحامين ، ومع فريق من أعضاء الأسرة ، على إخراجِ وصيّة تحرمها إرث أبيها !

أُصيبت على أثر ذلك بحُمَّى في رأسها كادت تودي بها . ظلَّت مسمَّرة على فراش المرض طوال شهر ، فاقدة الوعي ، دائمة الهذَيان . وفارقتها الحمّى بعد أن تركتها ضعيفة السَّمع ، مشلولة اليد اليسرى. وأفاقت لترى كيف تحطَّم الصنم في يديها ، وانهار المَثَلُ الأعلى . وشعرت أنّها وحيدة عزلاءُ ، فاصابها شِبهُ ذهول أنقذها منه رجوعُها إلى المطالعة. هذه الكتب التي جنَتْ عليها فيما مضى ، إذ عزلَتْها عن المجتمع وأغرقتها في دنيا الحلم ، كانت لها خشبةَ النَّجاة ؛ طالعَت فيها قصصاً وتأمّلاتٍ شدَّدت من عزمها ،

وأعادت إليها نشاطها وثقتهـــا بنفسها ؛ قرأت عن أفراد تعذّبوا عذابَها ، ثم نهضوا واتّخذوا من الضعف قوّةً ، وواجهوا الألم بالتحدّي .

وخرجت من البيت وفي قلبها حقدٌ دفين . لم تلتفِت إلى الوراء ، ولم تكلّم أحداً ، بل لجأت إلى أحد الأديرة النسائيّة حيث تسلّمت إدارة صفوف الخياطة والتطريز . ولمّا اجتمع لديها مقـــدار من المال فتحت مشغلاً على حسابها ، وراج عملها رواجاً غريباً . أصبح عدد العاملات عندها يزيد على العشر ، وعرفها زبائنها باسم السيّدة « جِهان » .

★

مرّت حوادث حياتها أمـــام عينيها كشريط سينمائيّ . إستعرَضت ماضيها بذكرياته العذبة المريرة ؛ هذا الماضي الذي طمرته بيدها ، وأسدلت عليه ستار النسيان ، ها هو يقرع بابها من جديد !

ماذا يريد منها « سميح » ؟ أتراه يريد أن يحدّثها مرّةً أخرى عن جَشَع الرفقـاء واحتيالِهم ونفاقهم ؟

أيريد بَعثَ ذكريات لم تورثِها سوى الحسرة والهمّ والشقاء ؟

لقد أخطأت في وعدها باستقباله حين خاطبها على التلفون ؛ ولو فكّرَت لكان جوابها رفضاً . لقـــد غفرَتْ له كثيراً فيما مضى...كان ذلك عهداً ذهب... وهيهاتِ أن يعود !

أيمكن أن تغفر له الآن ؟

الحقيبة

كان اليوم صافياً ، مشرقاً ، يُشيع في النـاس الدِّفءَ والبهجة . لكنّها لم تجد فرقاً بين هذا اليوم وغيره ؛ فأيّامها – هي – واحدة في رُتوبها وقُتومها . ولا تذكر في حياتها الماضية أيّاماً مشرقـة كالتي تطبع على وجه غيرها من الفتيات ابتسامةَ الأمل والرضى .

لقد انتهت إلى الاعتقاد بأنْ ليس في الحيـاة سعادة ، واطمأنّت إلى آراء الكثيرين من الكتّاب والمفكّرين الذين جاهروا بأنّ السعادة وَهْمٌ وخيال ، فوجدت في أقوالهم عزاء ... أتراها أحكم منهم وأكثر تجربة ؟

ألسيّارة تنساب بها حثيثاً على الطريق المعبّد
الذي يحاذي الشاطىء الجميل . ونسيم الصباح يصفع
وجهها ويداعب شعرها . لكنّها لا تشعر به ، ولا
تَحفِل بما حولها من مظاهر نشاط أو سكون .
بجانبها في السيّارة رجلان قد غرقا في صمت عميق
كأنّهما أخذا بسحر هذا الصباح وجلاله ؛ لكنّها لم
تلتفت إليهما ، بل أغمضت عينيها واستسلمت لأفكارها،
لعالمها الداخليّ ، وكأنّها تودّ أن تُقيم حِجاباً بينها
وبين الناس .

وما يعنيها من أمر هؤلاء الناس ؟ فهي منذ
طفولتها لم تكن بينهم إلاّ غريبة . لماذا ؟... طالما
سألت نفسها هذا السؤال . منذ أخذت تلاحظ الأشياء
حولها ، أحسّت بهذه الغُربة ، واختبرتها حتى
صارت عندها شيئاً مألوفاً . عاشت غريبة في بيت
والدَيها لأنّهما لم يُعيراها أيّ اهتمام ؛ فهي واحدة من
خمسة أولاد ، بنتين وثلاثة صبيان ؛ وأيّ شأن
لبنت عاديّة الشكل في أسرة فقيرة كثيرة العدد ؟!

ومع هذا كانت تقوم في البيت بأشقّ الأعمال ،
وتتعب لأجل والديها وإخوتها ، من غير أن تنتظر
منهم كلمة عطف أو شكر . فقد قيل لها إنّها مَدينة
لهم بوجودها ، ومهما فعلت لأجلهم ستظلّ عاجزة
عن مكافأتهم ... كان ذلك عهداً ومضى ... إنّها اليوم
تسخر من هذه الأقوال ، ولا تجد في الوجود الذي
منحاها إيّاه نعمة تستحقّ الشكر .

على أنّها ، في عَلاقاتها مع الناس ، لم تكن أسعد
حظًّا . كان عملها في التطريز مدّة سنة شبيهاً
بالسُّخرة ، وكان أبوها يقبض أجرتها في آخر كلّ
شهر ، نصف ليرة عن كلّ يوم شغل . ثم قُيِّض لها
دخول مدرسة تعمل فيها أكثرَ الوقت في التطريز
ورَفء الثياب ، وتدرس في ما بقي منه . ومع هذا
استطاعت أن تبرع في الحساب ، وأن تَحذِق
الفرنسيّة في ذلك المحيط المستغرِب ، حتى كلّفتها
صاحبة المدرسة تعليمَ بعض الأولاد في أوقات فراغها.
كلّ هذا من غير مقابل . فرضيت ولم تقل شيئاً ،

لأنّها وجدت لذّة في المسؤوليّة . أخيراً سلّمتها أحد
الصفوف الأوّليّة مقابل أجرة لا تساوي أجرةَ
واحدةٍ من الخادمات ، ورضيت الفتاة لأنّها ما
تعوّدت قبل هذا أن تفكّر في الأجرة ، بل كان
عملها حتى الآن بذلاً وخدمة وعطاء سَمْحاً .
وأكبّت على عملها بحماسة الصّبا واندفاعِه مدّة سنتين
متواليتين ، جمعت فيها مقداراً زهيداً من المال
دفعته إلى أبيها ، بعد أن قتّرت على نفسها في شراء
الكُسوة وسواها من أشياء .

وفي بعض زياراتها « لبيروت » لمشترى حاجاتها
لقيت إحدى المعلّمات في مدرسة هناك ، فبدأ بينهما
عهد صداقة أدّى إلى انتقالها من مدرستها القرويّة
إلى مدرسة هذه الفتاة ، لأنّ المديرة رضيت بأن
تعطيها راتباً يساوي ضعفَي ما كانت تتناوله في
المدرسة الأولى . فأدركت المسكينة أنّ تلك المديرة
الأولى كانت تستثمرها بغير علمها . لكنّ عملها
الجديد أنساها الغَبْن القديم . وشعرت بأنّها مَدينة

لتلك الصديقة ولمديرتها الجديدة التي أنقذتها من الغبن
والاستثمار ، فراحت تعمل دائبة جاهدة سنة بعد
سنة ، والأيّام لا تزيدها إلاّ تعلُّقاً بصديقتها
ومدرستها . حتى عرفت يوماً من إحدى معلّمات
المدرسة أنّ الأجرة التي تتناولها هي نصف ما
تتقاضاه المعلّمات اللواتي يَقمن بمثل عملها ولا
يَفُقْنَها في المستوى الثقافيّ ! ففهمت أنّها وضعت
ثقتها في أُناس لا يستحقّون الثقة ، وعرفت أنّ
صديقتها قد خانتها وعبثت بها .

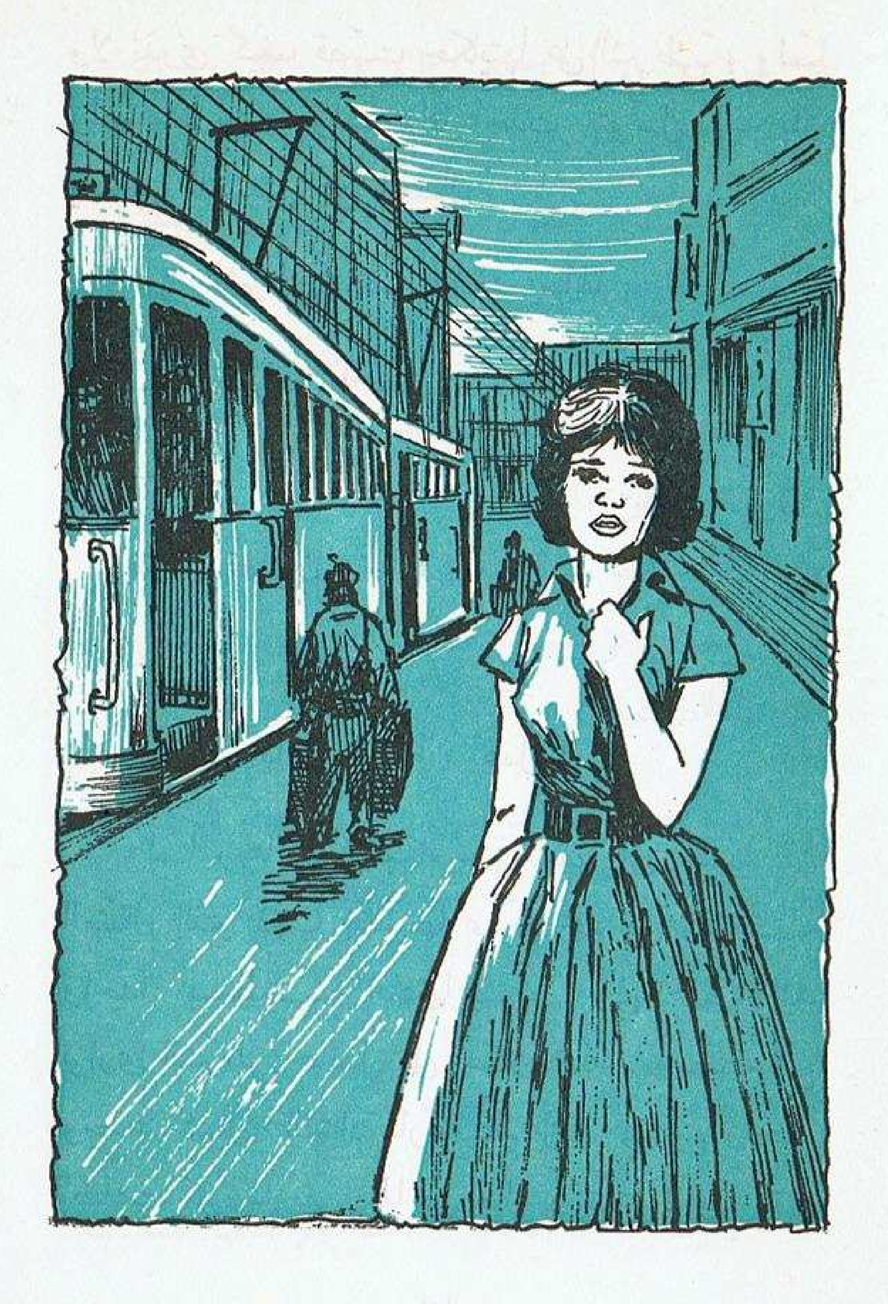
وحين جاءت البيتَ آخرَ مرّة لقضاء عطلة
العيد ، دخلته وفي نفسها لهفة وحنين ، وأملٌ بأن
تجد هناك بعض الراحة وبعض العزاء ، كأنّها نسيت
الماضي : نسيت أنّها ما أقامت هناك بعض أيّام العطلة
إلاّ تاقت إلى انقضائها وغادرت البيت قبل انتهائها .
وها هي الآن تعود ولمّا تنتهِ العطلة ، تعود وفي
نفسها خيبة جديدة وأمل محطّم ... لقد وعد أبوها
بأن لا يمَسَّ شيئاً من معاشها الجديد في المدرسة

الجديدة ، بأن يبقي دراهمها في الخزانة حيث تركتها ملفوفة في المحفظة الصغيرة . وها هو يُخلف بوعده فيمدّ يده إلى المال ولا يبقي على شيء منه ، زاعماً أنّه احتاج إليه من أجل إخوتها ومن أجل تجارته . طبعاً لم يجد حَرَجاً في خلق الأعذار ! أمّا هي فلم تَبتئِس بنبت شَفَة ، بل قامت في الصباح الباكر كعادتها ، وجمعت أشياءها وثيابها وكلّ ما كانت قد تركته في البيت . وضعت ذلك كلّه في حقيبتها الجلديّة الضخمة ، وأضافت إليها رواتب الأشهر الثلاثة الأخيرة ، وهي كلّ ما تبقّى لها من عمل خمس سنوات أو أكثر . جعلت هذا المبلغ في المحفظة الصغيرة التي وجدتها فارغة في الخزانة ، ثم أدخلت المحفظة في أحد جيوب الحقيبة التي وضعها السائق في صندوق السيّارة . هذه الحقيبة هي كلّ ما بقي لها في الوجود ! وحانت منها التفاتة إلى الوراء كأنّها تريد الوثوق من أنّ الصندوق ما يزال محكم الإغلاق ، وأنّ حقيبتها ما تزال في مكانها لم يُصبها شيء . لكنْ ، في هذه اللحظة عينها ، وقفت

السيّارة وتحرّك الركّاب للنزول . لقد بلغت « بيروت » من غير أن تشعر بمرور الوقت . ونهضت من مكانها كأنّها تستيقظ من حُلم مزعج ، وفركت جبينها تحاول أن تستعيد وعيها كاملاً . وإذا بالسائق يُنزل حقيبتها الكبيرة فيرميها على الرصيف الضيّق ، ويطلق لسيّارته العِنان وهو لا يَلوي على شيء .

كان الرصيف مزدحماً بالمارّة والباعة . فوقفت الفتاة مرتبكة ويدُها على الحقيبة ، ثم تطلّعت حولها تبحث عن عتّال ، فظهر لها على بعد بضعة أمتار من مكانها عددٌ من العتّالين مجتمعين حول سيّارة شحن هائلة الحجم ؛ فأشارت إلى واحد منهم ، وكان شيخاً أبيض الشعر ، أعمشَ العينين ، يرتدي الأسمال :

ـ تعالَ من فضلك احملْ لي هذه الشنتة إلى ترام « البرج » . سأطلع وإيّاك في الترام وأدفع عنك الأجرة إلى محطّة « غراهام » .



ومشيا وسط الزحام . وما بلغا ساحة « البرج » حتى أبصرا الترام قادماً ، فصاحت الفتاة :

ـ هيّا ! تعال ! لنصعد بسرعة قبل أن يمشي الترام .

وخُيِّل لها أنّه صعد بين الصاعدين ، الهاجمين على الترام هجومَ الذئاب على الفريسة ؛ فشقّت لنفسها طريقاً بينهم وصعدت ، وأخذت تتلفّت باحثة عن العتّال فلم تقف له على أثر ! وتابعت البحث والتفرُّس بعينيها الحادّتين . وما إن أكّدت أنّه لم يكن في الحافلة حتى اندفعت خارجاً وهي تشقّ طريقها مرّة أخرى ، ورمت بنفسها إلى الشارع والحافلةُ تتحرّك للمسير . وأخذت تتفرّس في وجوه الواقفين والمارّين على الرصيف وفي كلّ مكان ، فلم تجد بينهم العتّال ؛ فتسارعت نبضات قلبها ، وأحسّت بدُوار يكاد يصرعها أرضاً . لكنّها تمالكت وأخذت تركض كالمجنونة نحو مخفر « البرج » .

ولا تدري كيف قصّت حكايتها على الشرطيّ ؛ ولمّا رأت منه برودة واستخفافاً أخذت تتوسّل إليه بأن يصحبها للتفتيش عن العتّال .

فهزّ الشرطيّ رأسه وأخذ يسألها :

ـ هل تعرفين اسمه ؟

ـ لا .

ـ هل تعرفين رقمه ؟

ـ لا .

ـ إذن ماذا تريدين أن أعمل ؟

ولمّا رآها تهمّ بالبكاء مشى معها إلى حيث كان العتّال الذي ذهب بحقيبتها ، فلم تجد من رفقائه واحداً يستطيع إفادتها بشيء . وفي هذه الأثناء توارى الشرطيّ عائداً إلى مكان عمله . ومضت هي وحدها كسيرة الفؤاد فارغة اليدين . في يوم واحد أضاعت كلّ ما بقي لها من مال ومَتاع ! ولو بقي

لها أحد تثق به أو تشكو إليه لهان الأمر ، لكنّها فقدت ثقتها في أقرب الناس إليها ، فلا عجب أن يسرقها هذا العتّال الغريب ويهرب بحقيبتها . وصعدت حافلة الترام متثاقلة تكاد تتساقط إعياء ويأساً ، وتهالكت على أحد المقاعد . وحين صرخ قاطع التذاكر : « محطّة غراهام » ، قفزت كمَن لذعته جَمرة . ولكن ما بلغت الرصيف حتى جمدت في مكانها كالمصعوقة : لقد كان العتّال الأشيب الأعمش العينين جالساً على حجر هناك ينتظرها ، وبجانبه حقيبتها الضخمة !

وطفر الدمع من عينيها ، فلم تستطع الكلام في بادىء الأمر . ثم تقدّمت منه وقالت :

ـ ماذا حدث ؟ وكيف وصلت إلى هنا ؟

فقال بصوته الذي تُمازجه بحّة الكبر :

ـ رأيت حافلة الأمام مكتظّة بالركّاب فصعدت

في حافلة الوراء ، ونزلت عند محطّة غراهام كما قلتِ .
وما زلت منتظراً ...

لم تعرف كيف تعبّر لهذا الرجل عن شكرها وتأثّرها . وبحركة عفويّة أقبلت عليه كأنّها تودّ تقبيله ، لكنّها أحجمت ، وفتحت جزدانها الصغير وأعطته كلّ ما وجدت فيه من قطع نقديّة صغيرة ، بين ليرات وأنصاف ليرات وأرباع وعشرات غروش .

وكان بين أمتعتها رزمةٌ وضعت فيها عدداً من الأرغفة وقطع الحلوى والفواكه اشترتها من الدكّان في القرية ، فدفعت إليه بالرزمة وبكلّ ما فيها .

وإذا بصوت ينادي :

ـ « عبد » ، يا « عبد » !

فالتفتت ، ورأت عتّالاً يقف في الجانب الآخر من الشارع ويردّد مخاطباً الذي بجانبها :

ـ « عبد » ، يا « عبد » ، أيّها الأبله ! أين كنت مختفياً هذا الصباح ؟ لقد سأل عنك الخواجا « محسن » عدّة مرّات لنقل الأكياس . أين كنت أيّها المغفّل ؟..

يدُ القدَر

جلست « وداد » على شرفة منزلها منهمكةً في تطريز الفستان الذي ستلبَسه يوم عرس صديقتها « أسماء » . هي الآن وحدَها في المنزل ، لأنّ والدتها ذهبت لتزور والدة « أسماء » ، ولتستطلع أخبار العرس المقبل ، جرياً على عادتها في كثرة الفضول . وكأنّ تقدُّمها في السنّ لم يزدْها إلاّ فضولاً ورغبة في الزيارات ، تجد فيها مصرفاً لعواطفها ، ووسيلة لإرواء عطشها إلى أخبار الناس .

وألقت « وداد » نظرة على بيت « أسماء » الذي لا يبعد عن بيتها إلاّ قليلاً . « أسماء » ، عشيرتها وصديقتها منذ الطفولة ، رفيقتها في المدرسة



وخارجها ، التي أنفقت وإيّاها مُعظم أوقاتها ، وشكت لها أفراحها وأتراحها ، ستفارقها خلال مدّةٍ وجيزة لتقترن بخطيبها « وفيق » ، بعد خِطبة دامت عدّة سنوات .

جلست « وداد » مجتهدة في تطريز الثوب وهي تتصوّر يوم العرس : ستظهر « أسماء » جميلةً في ذلك اليوم ، وقد يكون ذلك لأوّل مرّة في حياتها ، لأنّ الفرح يزيد الوجه إشراقاً ؛ ولا بدّ للثوب الجميل الذي خاطته في « بيروت » أن يحدث تأثيره . ولكنْ ... من يشكُّ في أنّ « وداد » التي ستقف بجانبها ستكون أجمل منها بما لا يُقاس ؟ إنّها تعرف هذا وتؤكّده لنفسها ، لأنّ الناس ما تحدّثوا مرّة عن « وداد » إلاّ نعتوها بالجميلة ، وما مشت مرّة بجانب « أسماء » إلاّ ظهر الفرق بين الفتاتين : فهي طويلة ، شقراء ، دقيقة الملامح ، ورفيقتها قصيرة ، قاتمة اللون ، غليظة الشفتين . ولكنْ لا عجب أن تتزوّج « أسماء » قبلها ، فصديقتها تكبرُها بسنتين أو أكثر ؛ وهي ، فضلاً عن هذا ،

ذاتُ ثروة ترثها من والدها ، بعكس « وداد » ...

لقد شاءت الصّدَف أن تكون « أسماء » وحيدةَ أهلها ووريثتَهم ، في حين أنّ « لوداد » إخوةً ينفق الوالدان عليهم جميع دخلها ، فلا يبقى للفتاة أيّ أمل في الحصول على بائنة أو جهاز أو مال يجذب الخطّاب .... وربّما فكّر بعض الشبّان الفقراء في خطبتها ، لكنّ لها أمّاً عنيدة لا تزوّجها بفقير . وهي ، لهذا ، آلت على نفسها أن تصبِر وتجاري أمّها ، وتنتظر الفرَج يأتيها من خطيب غنيّ يُرضي كبرياء والدَيها ، ويحقّق رغبتها في العيش المترَف .

عجباً !.. كيف تختلف الحظوظ عند رفيقتين متقاربتين في السنّ ، متشابهتين من وجوه كثيرة ، لفرقٍ بسيط خطّته بينهما الأقدارُ : أنّ إحداهما وحيدة ، والأخرى ذات إخوة ؟!

على أنّ « أسماء » ـ رغم المركز الفريد الذي تحتلّه ، ورغم تسابق الشبّان إلى خطبتها ـ لم تبلغ أمنيّتها بسهولة . ولو كانت « وداد » مكانها لتزوّجت منذ عهد بعيد . لقد مات والد « أسماء » شابّاً ، وعاشت

الفتاة في ظلّ أمّ صعبة المِراس لا تفتأ شاكية متبرّمة . وقد تكاثر طلّاب الفتاة منذ أن بلغت السادسة عَشْرة ، لكنّ الذي أعجب « أسماء » لم يُرضِ أمَّها ، والعكس بالعكس . فالأمّ تريد صِهراً ذا مركز اجتماعيّ مرموق ، لطيفَ العِشْرة ، حسن المُلاينة ، تستطيع السكن وإيّاه تحت سقف واحد . أمّا « أسماء » ففتاة خياليّة تريد شابّاً مثاليّاً يشبه أبطال القصص في رجولته ونبلِ أخلاقه ، ولا يهمُّها كونه غنيّاً أو فقيراً .

وحدث مرّةً أن خطب « أسماء » شابٌّ غنيّ قليل العلم يدعى « رامز » . لم تُعجَب به « أسماء » ، ولكنّه أعجب الأمَّ بحُسن طلعته ، وبشاشةِ وجهه ، ودَماثة خُلقه ، فقرّرت أن تتّخذه صهراً . وبعد أخْذٍ وردٍّ ومشاحنات قامت بينها وبين بنتها ، تغلّبت إرادة الأمّ ، ورضيت « أسماء » أن تتزوّج بالغنيّ نزولاً عند رغبة أمّها . ولكنْ حدث ما لم يكن بالحُسْبان : فقد جاء القريةَ رجلٌ من أقارب

الخطيب ودلّه على فتاة في قرية مجاورة ، تفوق
« أسماء » ثروةً ، فما كان من « رامز » إلاّ أن ذهب
مسرعاً إلى القرية المجاورة . وبعد أن اقتنع بصحّة
قول نسيبه عقد قرانه على الفتاة الجديدة بين ليلة
وضُحاها ، غيرَ عابىء بما أثاره في والدة « أسماء »
من غيظ واستنكار ، وفي ابنتها من نفور
واشمئزاز .

بعد هذا الحادث قرّرت أمّ « أسماء » أن لا
تتدخّل في زواج ابنتها ، وأن تدعها تنتقي مَن تريد.
ولنفور « أسماء » من خطيبها الأوّل قرّرت أن
تتزوج فتىً فقير الحال عَرَكه الدهرُ ، تستطيع
الركون إلى وفائه ، وتضع ثقتها فيه . فوقع اختيارها
على فتى يدعى « وفيق المؤدّب » ، أفلس والده في
التجارة ، فلم يُتَح للصبيّ إتمام دروسه في الجامعة ،
فحرّضته « أسماء » على متابعة الدرس ، وأعطته من
المال ما أمكنه من تسديد نفقاته . وحين حصل على
شهادة الحقوق أخذ يتسلّم الدعاوى الهامّة . وهو على

اتّفاق تامّ مع عروسه ، وسيعقد لهما قريباً .

*

تتابعت هذه الصور في رأس « وداد » وهي مقبلة
على تطريز ثوبها . وللمرّة الثانية تخيّلت يوم
الزّفاف ، وتراءت لها « أسماء » وبجانبها « وفيق »
في بدلة العرس . فقالت في نفسها : « إنّه جميل
الصورة ولطيف للغاية . حين أزور أسماء ينصرف
بكلّيّته إلى محادثتي ، كأنّني أنا المقصودة في
زيارته . لقد أحسنت « وداد » الاختيار ، وإنّي أرجو
لهما توفيقاً » .

قالت هذا متنهّدة ؛ ولكنّ وصول والدتها قطع
مجرى تفكيرها ، فرفعت رأسها ، وتوقّفت هُنَيهة
عن الشغل تريد بعض الراحة . لكنّ الوالدة اتّجهت
نحوها محاولة الإسراع في مشيتها ، فيميل جسمها
الضخم ذات اليمين وذات الشمال . وجلست لاهثة ،
وأخذت في الحديث من غير أن تنتظر من بنتها
سؤالاً :

ـ لقد انتهت استعدادات العرس . دخلت عليهما فإذا هما تتناقشان في موضوع الجهاز . الأمُّ تريد عرضه على الزائرات ، و « أسماء » تأبى ذلك . ثم إنّ الفتاة تريد تقصير المنديل الأبيض لينتهي عند العنق ، وتُلحّ الأمّ على أن يكون طويلاً ينسحب وراء العروس ، ويُمسك بأطرافه ولدان صغيران .

وفيما هما كذلك وصل « وفيق » متحمساً في يده رسالة ، فأخبرهما أنّ عمّه المقيم في بلاد « السودان » منذ عشرين سنة ، والذي لا يعرف عنه شيئاً ، أرسل برقيّة يسأله فيها الحضور إليه بسرعة لأنّه مريض في حالة خطرة . ثم أضاف قائلاً إنّه قرّر تلبية طلب عمّه لأنّ العرس يمكن تأجيله ، أمّا الموت فلا ...

هنا توقّفت أمّ « وداد » عن الكلام لتتنفّس الصُّعَداء ، ثم أردفت بقولها :

ـ تصوّري أن لا بدّ من تأجيل العرس إلى وقت غير معلوم . ذلك صعب جداً .

ـ صعب بلا شكّ ، قالت « وداد » ، كلّ شيء أصبح جاهزاً ... وأنا أجتهد في تطريز الفستان ... أرجو أن يُسرع « وفيق » في العودة ...

ـ إنّه مسافر اليوم من غير إبطاء !

قالت الأمّ هذا ، وهرولت إلى المطبخ إذ شعرت أنّها تأخّرت عن إعداد طعام الظُّهر .

علّقت « وداد » فستانها في ناحية من الخزانة ، وللمرّة الثانية أخذت تفكّر في أعمال الصدف وتقلُّب الأحوال . تفكّر في « أسماء » هل يطول انتظارها ، وما يكون شعورها إزاء هذا الحادث المفاجىء الغريب ...

★

وفعلاً طال انتظار « أسماء » وصديقتها ، حتى ورد من « وفيق » كتابٌ يُخبر بوفاة عمّه ، وأنّه تسلّم أشغاله هناك وقرّر البقاء لمدّة غير معلومة ؛ وهو لهذا يَنوي فسخ خطبته ، ويترك « لأسماء »

حرّيّة الزواج بغيره ، ويرسل إليها حوالة بالمبلغ الذي أنفقته عليه ، مبيّناً لها شديدَ أسفه ، راجياً منها قبول عذره .

عجبت « وداد » لتطوُّر الحالة على هذه الصورة ، وزادت عجباً حين وردها بعد مدّة قصيرة كتابٌ من « وفيق » يسألها فيه أن ترضى بالزواج به لأنّه ما أحبَّ سواها . وقد كان يريد الزواج « بأسماء » لحاجته إلى ثروتها . أمّا الآن ، وقد أصاب ثروة وافرة بما ورثه من عمّه ، فلم يبقَ هناك ما يُرغمه على زواج لا يميل إليه . وسيعود قريباً إلى مسقط رأسه ليقترن « بوداد » إذا نال موافقتها ...

لم يتعجَّب أحد من الناس حين عاد « وفيق المؤدّب » من « السودان » ليعقد قرانه على صديقة خطيبته . ولم يستغربوا موافقة « وداد » على هذا الزواج ، بل رأوا أنّها ، لو رفضت ، لظهرت بمظهر الغبيّة ، لأنّ رفضها لن يعيده إلى « أسماء » . وجلس بعضهم في إحدى العَشِيّات يتحدّثون عن

الموضوع ، فقال أحد الجالسين :

ـ لقد أحسن « وفيق » صنعاً . لو كنت مكانه لما تردّدت في التغيير ، فهذه أفضل من تلك بكثير .

وقالت إحدى السامعات :

ـ لقد ساعفه القدَر ويسّره الله بعد عُسر . مالٌ كثير ، وزوجة جميلة .

فأجابتها أخرى بجانبها :

ـ للمرّة الثانية تتولّى الأقدار كشف النيّات ، وتُظهر خفايا الصدور ، وتخلّص « أسماء » من زوج خائن . لو تزوّجت « أسماء » هذا الفتى ، أتظنّين أنّها تعيش معه سعيدة ؟ أيمكنها أن تعيش طوال عمرها سعيدة مع ممثّل ؟

فقالت الأخرى :

ـ من يدري ؟ إذا كان يتقن التمثيل ! فهو يستطيع خداعها حتى النهاية ! ما أكثر الناسَ الذين يعيشون بالأوهام ويسعدون بالأحلام ! فإذا رُفعت عن

أعينهم أغشية الوهم عاشوا تعساء مقهورين .

★

قال لي الذي روى القصّة :

ـ لا أدري ما الذي حلَّ « بأسماء » بعد هذا ... علمت أنّها سافرت إلى بلاد بعيدة تاركة أمَّها وحيدة يائسة . ولا أدري هل عثرت على زوج موافق ، أم إنّها لا تزال في غمرة الانتظار ...

حُلم « أُمّ أمِين »

ما زالت « أمّ أمين » في شغُلٍ شاغل منذ أن حلَمَت ذلك الحُلُمَ الذي أثار مشاعرها : رأت في نومها شخصاً طويل القامة ، يلبَس النظّارات والبرنيطة الفرنجيّة ، يطرُق باب البيت ويدخل ، ثم يناولها صرّةً تحتوي كميَّة من الليرات الذهبيّة . ولسوء الحظّ استفاقت وهي في عمليّة عدّ الليرات ، فلم تعرف الكميّة على وجه الضبط . ورغم هذا غمرتها نشوة الفرح ، وانبعثت في صدرها الآمالُ العِراض . ومن ذلك الحين أصبحت حواسُّها أرهف من ذي قبل .

إذا طُرق الباب خُيّل لها أنّ شخصاً مُبرنطاً

يقف هناك وبيده صرّة من الليرات ، فتُسارع إلى ترتيب المقاعد ، وتحضير علبة السيكارات . ثم تفتح الباب لترى خيبة أملها إذ يكون الطارق شحّاذاً ، أو أحد الأقارب ، أو زائراً آخرَ ثقيلاً .

لكنّ الحلم لا يتمّ بين ليلة وضحاها . فلا بدّ لها من الانتظار ، ولا بدّ لها من الإيمان ، لأنّ كثيراً من أحلامها تحقّق فيما مضى . حين ماتت بنتها الصغرى حلمت قبل ذلك بأيّام أنّ في البيت حفْلاً كبيراً ، وضمّةً من الزهور في وسط الردهة ، فثارت مخاوفها لأنّ البنت كانت مريضة ، وما لبثت أن ماتت ، وتحقّق الحلم . وحين رأت في نومها منذ زمن بعيد ، موزّع البريد يسلّمها مكتوباً ، لم يمضِ وقت حتى جاء المكتوب من أخيها المغترب في « أميركا » ، بعد أن انتظره أبوها وأمُّها انتظاراً جرّهما إلى اليأس ... لا ريب أنّها مثل المرحومة أمّها التي ما حلمت حلماً إلاّ رأته يتمّ .

منذ مدّة يسيرة عاد إلى القرية أحد المغتربين في « أميركا » ، وكان كهلاً طويل القامة يلبس البرنيطة .

وكان بطبيعة الحال مُثرياً يملك مئات الألوف من الليرات المودَعة في البنك . فأملت أن يكون هو الصهر المنشود الذي تُزوِّجه بنتها « جميلة » مقابل حفنة من المال يرميها في حضنها ، أو ، على الأقلّ ، يرضى بأخذ البنت من غير أن يكلِّف أهلها نفقة الجهاز وما يتبعها من نفقات .

وفعلاً جاء العريس ، واستقبلته الأمُّ بحفاوة كادت تخرجها عن طورها . ثم انصرف من غير أن يقول شيئاً . وفهمت الأمّ فيما بعد أنّ « جميلة » لم تعجبه لأنّها سمراء . وقد اشتدّ غضبها وعلا صياحها حين قالت لزوجها :

– كلّ الحقّ عليها ! قلت لها أن تحسِّن طلاء وجهها قبل قدوم الرجل ففعلت العكس ... كعادتها كلّما أوصيناها بشيء ... كلّ الحقّ عليها !

وأردفت تقول لنفسها : « لولا عنادُها لتحقّق حلمي » .

وظلّت مكابرة في موضوع زواج ابنتها ،

فأقسمت لا تزوّجنّها إلاّ برجل عظيم الثروة يليق بها . وهي في موقفها على حقّ ... ها هي « زينة » بنت « يوسف بهنام » تُزَفُّ إلى غنيّ صاحب أموال وأرزاق ، مع أنّ ظفر بنتها يساوي بنت « يوسف بهنام » ! ومع أنّ كثيرين من شبّان القرية طلبوا الزواج بالفتاة بعد هذا الحادث ، فقد عادوا مخيّبين ، لأنّ الأمّ ما فتئت تنتظر شخصاً آخر .

وفي خلال ذلك تحوّلت آمالها إلى ابنها « أمين » الموظّف في إحدى الشركات الأجنبيّة ... صحيح أنّه يعمل براتب بسيط كسائر الموظّفين الصغار ، لكنّها تنتظر له مستقبلاً باهراً ، لأنّه يعرف اللغات ، ويشتغل عند أناس يَقدرونه ، ولن يمضي عليه زمن حتى يرتقي ويصبح مديراً أو مفتّشاً ... ألم يصبح « نديم سلوم » وأخوه من كبار الأغنياء عقيبَ التحاقهما بإحدى المؤسّسات الأجنبيّة !؟ ألم يبنِ « سالم مسعود » أكبر بيت في القرية بفضل استخدامه عند أولئك الذوات الذين يلبسون البرانيط

والنظّارات ، ويفتحون المعاهد والشركات ، وينثرون المال ذات اليمين وذات الشمال ؟!

منذ أسبوع أرسل ابنها يقول إنّ اثنين من زملائه سيزوران القرية لبعض الأشغال ، وربّما زارا الوالدَين في دارهما . وحين ورد هذا الخبرُ عَمَر صدرُ الأمّ بالأمانيّ ، وأخذت تحسُب لهذه الزيارة ألف حساب . وراحت تهيّىء الردهة والمقاعد وهي تخاطب زوجها :

– إسمع يا « محفوظ ». هل هيّأت علب السيكارات والنُّقولات ؟ لا تنسَ أن تقدّم كلّ ما يلزم بينما أكون منهمكة في تحضير القهوة والليموناضة وغيرهما من مشروبات .

ثم تخاطب نفسها : « ربّما وجدنا في أحدهما عريساً مناسباً للبنت . ومهما كان الأمر ، لا بدّ أن يكون وراء زيارتهما فائدة » .

وصل الضيفان الموعودان . وصوّبت « أمّ أمين » نحوهما سهام عينيها ، فكانت خيبتها الأولى أنّ أحدهما كان مكشوف الرأس ، والآخر يلبس الطربوش !

لكنّ الخيبة لم تنقص من فضولها شيئاً . وحين استراح الرجلان ، وتناول كلٌّ منهما سيكارة ، اقتربت منهما « أمّ أمين » وأمطرتهما وابلاً من الأسئلة حول ابنها وأشغاله والغرض من زيارتهما . فكانا يجيبان باختصار شديد :

ـ « أمين » صحّته حسنة ، يهديكما سلامه . وقد قدمنا البلدة لنرى إمكانات القيام بمشروع زراعيّ ، ولن تقتصر زيارتنا عليها .

وزادا شروحاً لم تفهم منها « أمّ أمين » شيئاً . وسُرّ « أبو أمين » لأنّ الزيارة كانت قصيرة . وما أدار الرجلان ظهريهما حتى أطلق لسانه بالشتائم لِما كلّفه هذان الغريبان من نفقة واهتمام لغير فائدةٍ ما .

*

مرّت « أمّ أمين » بعد هذا بفترة انتظار مزعجة . فلم يأتِ بيتَها خاطبٌ جديد ، لا غنيّ ولا فقير . وفي أحد الأيّام ، إذ كانت جالسة تخيط ،

وقفت بجانب البيت سيّارة نزل منها ابنها « أمين » ومعه حقائبه .

وما إن فهمت أنّه تخلّى عن شغله في الشركة حتى ثار ثائرها ، ورفعت ذراعها تستمطر عليه لعنات السماء . واقتدى بها الأب ، فوقف كلاهما وقفة أنبياء العهد القديم يناديان بالويل والثُّبور ، ويقذفان الشابّ بصواعق غضبهما .

ـ ماذا جئتَ تصنع هنا ؟ هل عندنا كوارات العسَل ؟ لقد هدمت مستقبلك بيدك ! كيف تترك الوظيفة التي قتلت حالك للوصول إليها ؟ أيّ شيطان وسوس في رأسك ؟

وفيما كانت الأمّ تفرك يديها وتتمتم : « ياضياع أملنا ! » كان الابن مطرقاً يحاول كظم غيظه . وحين أفرغ الوالدان كلّ ما في جَعبتهما من عبارات تهديد وتعنيف ، أخذ يشرح لهما أنّه ترك شغله بالاتّفاق مع بعض زملائه ، ومنهم الاثنان اللذان زارا القرية منذ أسابيع ، وأكّد لهما أنّهم هجروا الشركة هرباً



من سوء المعاملة ، واحتجاجاً على خطّة العَسْف والاستبداد التي تنهجها . ثم قال إنّه اعتزم مع رفقاء له إنشاء مشروع زراعيّ تعاونيّ يضمّ منتجي الفواكه والخضار في عدد من القرى المتجاورة ، ويأملون أن يدِرّ عليهم المشروع أرباحاً وافرة في ظرف وجيز .

وحين علم الوالدان أنّ في الأمر مغامرة قد تجرّ الربح أو الخسارة تعالى صياحهما ، ولم يفهما كيف يُقدم ابنهما على ترك شغله المأمون المضمون في سبيل مشروع لا يزال في الهواء . وقال الفتى :

– ليس في الأمر مغامرة . كلّ منا يشتري بضعة أسهم يزيدها فيما بعد من الربح .

– وإن خسر كلّ رأسماله ماذا يصنع ؟

ورفعت الأمُّ يديها مرَّة ثانية وهي تصرخ :

– إذهب إلى مديرك واعتذر إليه ! إن لم ترجع إلى شغلك حرَّمنا عليك دخول هذا البيت !

- طيّب . لن تروا وجهي بعد اليوم .

وصاح الوالدان بصوت واحد وهما يتميّزان من الغيظ :

- إن لم تعُد إلى عملك في الشركة لا نريد أن نراك . إذهب من هنا أيّها الغبيّ ! نحسب أنّك ما خُلقت ، ولا رأتك عيوننا !

*

وعقد « أمين » مع رفقائه شركة تعاونيّة للمحاصيل الزراعيّة جعلوا مركزها في بلدة بعيدة عن بلدته . وكانت « أمّ أمين » تسمع بأخبار هذه الشركة . وقيل لها بعد مدّة إنّ ابنها أصبح من كبار أصحابها ، وتوصّل إلى جمع ثروة حسنة واقتناء سيّارة خصوصيّة .

ومرَّ بها مرَّة أحدُ رفقائه فأراها صورته مع بعض زملائه وهو لابس برنيطة فلّين ، يشهد تصنيف الثمار وإعدادها للتصدير .

فصفّقت الأمّ طرباً وقالت :

- ها هو حلمي يتحقّق ! ليس الذي رأيته في المنام

سوى ابني « أمين » وقد عاد إلى البيت ومعه جراب ذهب رماه في حضني .

وأرسلت إليه كتاباً تستقدمه . وأخذت تصلّي بحرارة ، وتمنّي نفسها برجوع الصبيّ إلى البيت في سيّارة خصوصيّة قد حملت أكياساً من الذهب والفضّة .

لكنّ « أمين » لم يعد أبداً .

ألقوا دلوكم!

كان الخطيب فتىً في مقتبَل العمر ، لم يتخطَّ ربيعه السابعَ عشَرَ ، رَبْعَةً ، وسيمَ الطَّلعة ، وجهُه كوجه فتاة . لكنَّه ، حين واجه الجمهور ، وقف شامخَ الرأس ، مرتفع الصدر ، وملأ القاعة بصوته الجَهْوَريّ ، فملك قلوب السامعين . ومع أنّ أكثرهم لم يفهموا مغزى كلامه ، فقد ظلّت عيونهم مسمَّرة عليه منذ بداية الخطاب حتى نهايته . وبحركة آليّة ارتفعت أيديهم بتصفيق حادٍّ طويل ارتجَّت له الجدران . وهمَّ بعضهم بحمله على الأكُفّ ، في حين كانت النساء يتمتمن بأصوات خافتة : « الله يخلّيه لأبويه ! ما شاء الله ! سيكون نابغة زمانه ! »

هذا الفتى الذي انتزع إعجاب الجمهور كان رابع المتبارين في الحفلة الخطابيّة التي أقامتها « مدرسة النسور » في إحدى أمسيّات الربيع ، كعادتها في كلّ سنة . وحين أُعلِنت نتيجة المباراة كان الفائزَ بالجائزة الأولى . وتناقلت شفاه الحضور اسمه لأنّهم تاقوا إلى معرفته : « راغب سعيد طالب في الصفّ المنتهي ، أبوه عامل بسيط لا يستطيع الإنفاق عليه . يتلقّى العلم مجّاناً لأنه متفوّق في دروسه » . أمّا خطابه فتركّز على جملة تردّدت في تضاعيفه ، وهي الجملة التي تلقّاها جماعةٌ من المسافرين نَفِد منهم الماءُ ، وبرّح بهم العطشُ ، وهم تائهون في عُرْضِ نهر كبير ظنّوه بحراً ، فأرسلوا نداء إلى أقرب ميناء يطلبون ممّن هناك إمدادَهم بالماء ، فجاءهم الجواب :

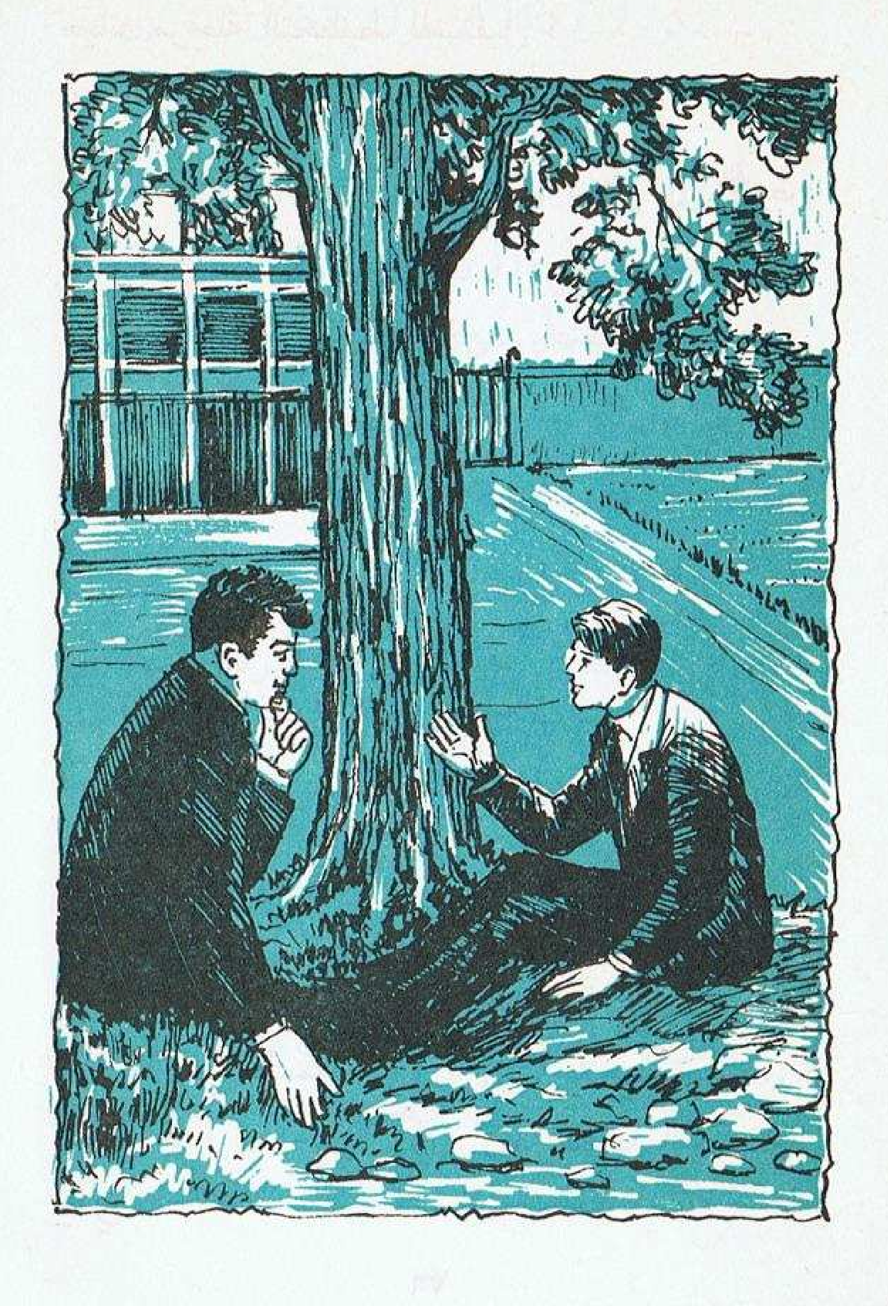
ـ ألقوا دلوكم حيث أنتم ، لأنّ المياه التي تمخرها سفينتكم صالحة للشرب !

إنتهت الحفلة ، وتفرّق الجمهور بعد أن أنفقوا شطراً من يومهم في لهوٍ لمعَ كالبرق في سماء حياتهم

الرتيبة . أغدقوا على الأساتذة وعلى الخطباء عباراتِ الثّناء التقليديّة ، وذهب كلٌّ منهم في سبيله . أمّا الطلاّب فخرجوا من قاعة الحفلات وانتشروا فوق الهضبة التي قامت عليها المدرسةُ ، كأنّهم قطيعٌ شارد ، وراحوا يطلبون في القفز والجَرْي مصرفاً لنشاطٍ محبوس . لكنّ واحداً من زملاء « راغب سعيد » انتحى إحدى زوايا الساحة الكبرى ، وجلس في ظلّ واحدة من تلك الشجرات الجبّارة التي وقفت كلٌّ منهنّ في مكانها كالحارس الأمين ، تمنح الطلاّب بسخاءٍ ما منحها الله من نضارة وظلّ .

كان هذا الفتى من أعضاء الصفّ المنتهي ، وقد جمعت بينه وبين « راغب » أواصرُ الزّمالة والصداقة . ورغم أنّه كان غريب البلد ، قصَد هذه المدرسة منذ بضع سنوات ليطلب العلم ، فقد استطاع أن يندمج برفقائه حتى صار كواحد منهم.

لقد ترك خطاب « راغب » أثراً عميقاً في نفسه ؛ وظلّت عبارته « ألقوا دلوكم حيث أنتم » تتردّد في



سمعه كأنّها قَرارُ أغنية محبَّبة . فما سنحت له فرصةُ الاجتماع بصاحب الخطاب حتى حدّثه عن انطباعاته بحرارة لم يُعرها « راغب سعيد » أيّ اكتراث . لكنّ الزميل ـ واسمه « جميل سالم » ـ فوجئ بموقف صديقه ، وعجِب من قدرته على معالجة موضوع لا يؤمن به . إنّه معجَب بذكاء « راغب » ، حريص على استكشاف رأيه في كلّ مسألة ، صغيرةً كانت أم كبيرة . لذلك قرَّ رأيه على أن يعود إلى مطارحته الموضوعَ في فرصة أخرى ليدافع عن وجهة نظره . ولم يطُل به الوقتُ حتى اجتمع « براغب » في مأدبة عشاء أقامتها إدارةُ المدرسة للطلاّب الفائزين بشهاداتهم . لازمَ « جميل » صديقه في تلك السهرة التاريخيّة ، وجلس وإيّاه في الحديقة التي تدلّت من أشجارها مصابيحُ يابانيّة ملوّنة ترسل أنواراً خافتة كأنوار الحُلم . فاستأنف كلاهما مناقشة موضوع الخطاب ، وبعد أخذ وردٍّ طرح « جميل » على رفيقه سؤالاً يتململ في رأس كلّ فتى يواجه من

حياته مرحلةَ التخطيط للمستقبل :

ـ ماذا أنت فاعلٌ في السنة المقبلة ؟

أرخى « راغب » عينيــه ، ونظر إلى الأرض كعادته حين يغرق في التأمُّل . ثم أجاب بعد تردُّد :

ـ والله لم أقرّر بعد . لكن ...أعتقد أنّي سأسافر .

ـ تسافر ؟ إلى أين ؟

ـ إلى « البرازيل » حيث يقيم لي خالٌ وأبناءُ عمّ ...

ـ ولكن ... لماذا لا تعمل هنا ؟

قلب « راغب » شفتيه ثم أجاب :

ـ عُرِضت عليّ وظيفةُ معلّم في هذه المدرسة فرفضتها .

ـ لماذا ؟

ـ أمجنونٌ أنا لأرضى بهذه الوظيفة التي ترهــق صاحبها ولا تطعمه خبزاً ؟ إنّ أحلامي بعيدة ... بعيدة جدّاً . أُحسّ أنّي أريد قطف النجــوم بيدي .

ـ لكن لا يمكنك الوصول دفعة واحدة إلى ما تريد . تبدأ بعمل متواضع ، ثم ...

فقاطعه « راغب » قائلاً :

ـ لا فائدة من الجدال . لن أضيع وقتي في عمل حقير لا يفيدني مادّياً ولا معنويّاً .

لكنّ « جميل » لم يقنط من إقناع صديقه ، فقـام بمحاولة أخيرة :

ـ إنّ هجرة أمثالك من الشبّان المثقّـفين خسارة كبيرة للبــلاد . في الهجرة مخاطرة ، مصاعبُ ومشقّات ، سعيٌ وراء المجهول .

ـ أعرف . لكنّ بلادنا بلادُ فقر وخمول . لقد سئمتُ هذه الأرض وأهلها . أرأيت واحــداً منهم يصيب نجاحاً عن غير طريق الهِجرة والمغامرة ؟

وافترق الصديقان . عاد « راغب » إلى بيته ليرتاح من عناء النهار ، وظلَّ « جميل » جالساً على مقعده في الحديقة . يعِزّ عليه أن يفارق هذه الربوعَ التي

أحبَّها، والتي صارت قسماً من حياته. سرَّح نظره في الأشجار المحيطة، حوَّله إلى التِّلال القريبة، إلى السفوح التي قامت عليها منازلُ حجريَّةٌ مقبَّبة السطوح، متينة البناء، دافئة الجوّ. عجباً! كيف يستطيع «راغب» أن يسأم هذه الأرض التي كانت وما تزال مقصد الغرباء؟! لماذا يغامر في أرض غريبة وأرضُه ما تزال بِكراً تحتاج إلى مغامرين؟.. إنّ فيه شيئاً من طبيعة الشعراءِ الذين يقولون ما لا يفعلون!..

طال تفكير «جميل» وهو جالس على مقعده في الحديقة. ولم يشأ أن ينام من غير أن ينتهي إلى نتيجةٍ ما. أخيراً ومضَت له فكرة: سيذهب غداً إلى مدير المدرسة ويقول له إنّه مستعدٌّ لتسلُّم الوظيفة التي رفضها «راغب». لقد حصل في الامتحانات على درجة حسنة، ولا شكَّ أنّ المدير سيرحِّب به لأنّه واحد من الأربعة الأوَّلين في صفّه، وإن لم يكن الأوَّل مثل «راغب». وحينئذٍ ستتاح

له فرصة البقاءِ في «لبنان». وإذا لم يجد خيراً في عمله التعليميّ فقد يوفَّق إلى غيره. إنّ نشاطه لا حدَّ له، والغدُ يمنّيه بالوعود.

★

في صباح يوم صائف كانت السفينة «اسبيريا» تُلقي مَراسيها في مرفإ «بيروت». وخرج منها الركّاب عابرين السلَّمَ الذي يصلها بالأرض. وكلّما خرج واحد هُرع لاستقباله حَفْلٌ من الأهل والأصدقاء، إلاّ واحداً في منتصف العمر، يلبس قبَّعة من القشّ، ويحمل بيديه حقيبتين كبرى وصغرى. عبرَ السلَّم خافضَ الرأس، إذ لم يجد أحداً في انتظاره. وللحال ركب سيّارةَ أجرة ضمَّت ثلاثة آخرين من الركّاب، وجلس صامتاً في ركن منها. وغرقت عيناه في المناظر التي انكشفت له من نافذة السيّارة متعاقبةً كشريط سينمائيّ. عجباً! كلّ شيء قد تغيّر منذ سفرته التي استغرقت نحو عشرين سنة! في هذه المدّة القصيرة تزدحم

« بيروت » بالبنايات ذات الجدران المَلساء ، والشرفاتِ المتعدّدة ، والشقق المتراكمة بعضها فوق بعض ... يظهر أنّ البناء ما زال يجري على قَدَم وساق : ففي كلّ شارع وكلّ منعطف أساسٌ يوضع ، وجدرانٌ ترتفع ، وهديرُ آلات النقر والحفر يصمّ الآذان ... بأيّ سِحرٍ استطاع هؤلاء الناس أن يجمعوا المال اللازم لتشييد هذه الأبنية الجبّارة في هذا الظرف الوجيز ؟ لعلّه أخطأ في العودة ، فهذه البلاد لا يعيش فيها سوى كبار الأثرياء . لقد بلغَتْه في الغربة أخبارُ الإثراء السريع فأغرته بالرجوع ، ولكن ... ما زال هدير المحرّكات في أُذنيه ، يهزّ كيانه فيشعر بضيق وانزعاج . أخيراً تقف السيّارة في منعطف ، فيترجّل منها الركّاب الثلاثة ، أمّا هو فيشير إلى السائق بأن يوصله إلى قريته التي تبعد نحو نصف ساعة عن المدينة .

وراحت السيّارة تخترق الضواحي المنفرجة الهادئة . ويهبُّ من ناحية الجبال نسيمٌ بَليل يُلامس

وجهه وشعره ، فيحسّ بانفراج .

ها هي ذي قريته القديمة ، ذاتُ البيوت المتفرّقة الدانيةِ السُّطوح ، أخذَت تشرئبُّ من بينها المساكنُ الحديثة ذات الشقق المتعدّدة ، تتألّق في الضحى ألوان نوافذها وشرفاتها كأنّها ، بهذه الزخارف ، ستجد عوضاً عن الجنائن الخضراء التي أحاطت بالمنازل القديمة . ولكنْ هيهات ! ألجنائن يتناقص عددها ! لقد ابتلعها البستان الجديد الممتدّ في جانب من القرية . لا حركة ، لا صوت ، سوى خرير الماء ينصبُّ في بركة قديمة .

أين يقف؟ لم يبقَ له بيت ينزل فيه . أبوه مات منذ خمس سنوات ، وكانت أمّه قد سبقته إلى القبر قبل ذلك بقليل . أختاه في الغربة ، كلٌّ منهما تزوّجت بابن عمٍّ لها وتقيم معه في إحدى مدن « البرازيل » . أخوه الأصغر موظّف في إحدى شركات « بيروت » ، متزوّج بفتاة موظّفة مثله ، مقيم في حيٍّ يقطنه صغار العمّال والموظّفين ، وقد انقطع

عن مراسلته في المدّة الأخيرة فلا يدري ما آلت إليه أحواله .

أين يقف ؟ وما عساه يصنع في هذه القرية التي انساق إليها من غير تفكير ، يحدوه دافعٌ مبهَم ؟ وفجأة وجد نفسه في المكان الذي قام فيه بيت أبيه ؛ ذاك البيت المتداعي ، المؤلَّف من غرفتين ، قد لبس الآن ثوباً جديداً ، وتضاعف حجمه . لا ريب أنّ الذي اشتراه قد أجرى فيه بعض الإصلاحات . عرفه من النخلة الواقفة هناك منذ أربعين سنة . ما زالت تهزُّ سَعَفاتِها كالمروَحة ! كانوا يسمّونها « البارومتر » لأنّها ، حين يقترب المطر ، تترنَّح كالسَّكرى ذاتَ اليمين وذات اليسار ، فتُعلِن قدومه . كم تسلَّق جذعها حين كان صغيراً ، وكان الجذع لا يجاوز في ارتفاعه أعلى النافذة . فكانت أخته « هدى » تمدُّ رأسها من خلال القضبان ، وتتلقّف منه بيديها حفناتِ البلح وهي تقول :

ـ يا لك من بهلوان !..

كان بارعاً في التسلق ... وفي أشياء أخرى .

لا يدري كم مضى عليه من الوقت وهو غارق في أحلامه ، حينما أحسَّ بيدٍ قويّة تستقرّ على كتفه ، وبصوت دافىء ينبعث من الماضي السحيق ويردِّد اسمه :

ـ « راغب » ... « راغب سعيد » ...

ـ « جميل » !.. « جميل سالم » ! لولا صوتك لما عرفتك !

ـ لقد غيَّرتنا الأيّام .

ـ إلى أفضل . أراك كما كنت ، صلب العود ، مفتول العضل كالرياضيّين . وقد أصبحت الآن مصقول المظهر كأصحاب الأعمال وكبار التجّار .

ـ هيّا إلى منزلي ، فأنت ضيفي ما دمت في هذه القرية .

سار « جميل » برفيقه القديم إلى بيته الجديد حيث عرَّفه بزوجته وأولاده الثلاثة . وبعد راحة

قصيرة تناول الضيف خلالها قليلاً من الطعام والشراب في غرفة الطعام ، قاده إلى الدّور الأعلى من منزله ، الذي احتوى على غرف النوم الخاصّة بالأسرة ، وبينها غرفةُ الضيوف ، فأجلسه فيها . ودار بينهما حديث طويل ساله فيــه « راغب » عن أحواله ، وكيف توّصل إلى ما هو عليه ، فقال :

ـ منذ نحو عشرين سنة اشتريت قطعة أرض بثمن زهيد جدّاً . واستفدت من مشروع الريّ الذي قامت به الحكومة ، فغرستها أشجــاراً مثمرة ، وحوّلتها إلى بستان . وحين اجتمع لديَّ المالُ الكافي ، الذي حصّلته من عمــلي ومن غلّة البستان ، بنيت هذا المنزل المؤلّف من طبقتين . أمّا المــال الذي أوفّره من دخلي فأوظّفه في مشاريع مختلفة .

ـ لقد أسعفك الحظّ . إنّي أهنّئك . أمّا أنا فقد جمعت في بلاد الغربة ثروَة لا بأس بهـا . وفي فرصة أخرى سأحدّثك عن مشاريعي .

ـ نعم . في فرصة أخرى . أنت الآن في حاجة

إلى الراحة ، فإلى غد .

في عشيّة اليوم التــالي جلس « راغب » في شرفة الغرفة التي أنزله فيها صديقه ، ومدَّ بصره إلى السهل المنبسط أمامه والجبالِ المرتفعة وراءه ، فراعه ما رآه ! وخُيِّل له أنّه يرى بلاده لأوّل مرّة : هذه القرية التي هجرها قبلاً وفي صدره نفورٌ واحتقار ، لماذا تغيَّرت الآن في نظره ؟ أهي التي تغيّرت ؟ أم هو ؟ أم الزمن ؟

ـ أنت ما تزال كعادتك كثير الأحلام .

رنَّ في أذنه صوتُ « جميل » فانتفض . وأضاف « جميل » :

ـ هذه علامة طيّبة ، تدلّ على أنّك ما تزال في سنِّ الشباب ، فالشباب زمن الأحلام .

ـ لكنّ الأحلام لا تتحوّل دائماً إلى حقيقة .

ـ لماذا ؟ ما الجديد الذي يجول في رأسك ؟

ـ عدت من « أميركا » وفي رأسي مشروع كنت

أنوي إخراجه هناك إلى حَيِّز الوجود . لكنّه في تلك البلاد تجارة معروفة مبتذلة ، أمّا هنا فأعتقد أنّه جديد .

ـ ما هو المشروع ؟ سأله « جميل » بلهجة فُضول، وقد اتّسعت حَدَقتاه بشكل غريب .

ـ أودّ أن أشتري قطعة أرض كبيرة : أرض بور ، صخريّة ، غير صالحة للزراعة ، من صنف الأرض التي تباع هنا بسعر زهيد لا يجاوز بضعة قروش للمتر الواحد ؛ فأبني عليها مساكنَ أؤجّرها ، أو أبيعها بالتقسيط بضِعفَي أثمانها . هذه القرية قريبة من « بيروت » ، وكثيرون من سكّان المدينة يفضّلون هدوءها على ضجيج مدينتهم... ما رأيك ؟

ـ والله فكرة حسنة . لكنّ أرض البناء ترتفع أثمانها باستمرار . وأخشى أن لا تجد مطلوبك الآن .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني أنّك لو اشتريت الأرض البور منذ عشر

سنوات أو أكثر ، حين كانت لا تساوي شيئاً ، لهان الأمر . أمّا الآن فأسعار الأرض المعدّة للبناء أصبحت فاحشة .

ـ لو كنتُ نبيّاً لفعلت .

ـ أمّا أنا فلست نبيّاً ، ومع هذا أُلهمتُ مشترى قطعة أرض من هذا النوع تتّسع لعشرات الأبنية ، من شخص كان يدين لي منذ أكثر من عشر سنوات بمبلغ من المال عجز عن تسديده ، فباعني الأرض بثمن زهيد جدّاً ليتخلّص من الدَّين . إنّي مستعدّ لتقديم الأرض ومشاركتِك في رأس المال . وبما أنّك ذو خبرة في الموضوع ، يمكنك إدارة العمل وتأمين الأرباح التي سنقتسمها كلٌّ حسب رأسماله . ما رأيك ؟

ـ رأيي أنّك عظيم ! حظّك يفلق الصخر !

ـ سَمِّه حظّاً إذا شئت ، أو إلهاماً ، أو بُعد نَظَر ، أو بصيرة . لا فَرق . ألا تذكر خطابك :

« ألقوا دلوكم حيث أنتم » ؟

تنهّد « راغب » وقال :

ـ بلى ! أتذكّره الآن ، وقد نسيتُه طَوال السنين الماضية . ولكن يا عزيزي ، أنّى لي أن أعلم بأنّ ما يصحُّ في ظرف من الظروف قد يصحُّ في غيره ؟...

*

مضى على هذا الحوار بضعةُ شهور وضع الشريكان خلالها الترتيباتِ اللازمةَ لإتمام مشروعهما . وأخذت الأبنية ترتفع واحداً تلو آخر كأنّما الجِنُّ أسهموا في بنائها . كان « راغب » يسمع هدير المحرّكات التي تدير آلات الحفر ، فيطرب له ويزول انقباضه .

ودرّ المشروع على صاحبيه مالاً وفيراً نال منه « جميل سالم » حصّة الأسد ، فصار من أصحاب الملايين . أمّا « راغب سعيد » فكان سعيداً بالحصول على نصيب من المال أمكنه من اقتناء مسكن جديد

يأوي إليه ، بعد أن عاش مشرّداً في مجاهل « البرازيل » مدّة عشرين سنة لم يذق فيها طعمَ الاستقرار ولا دفء الأسرة . لكنّه يُصرُّ على القول إنّ الحظّ خدم رفيقه القديم ، أمّا هو فلم يصبه منه إلاّ رشاشٌ في المدّة الأخيرة . ثم يضيف : « ومن حسن الحظّ أيضاً أنّ الدنيا لا تخلو من أصدقاء » .

النَّار الخفيَّة

منذ أن اختطف الموتُ صديقتي « ليلى » ، التي كنّا نسمّيها « المادونا » لانفراج جبهتها وطولِ عنقها ، استولى عليَّ حزنٌ عميق فتح في قلبي جرحاً لا يَندمل . لا أُنكر أنّ الموت يَخطِف الكبار والصغار ، وأنّا جميعَنا معرَّضون في أيّة لحظة لضَرَباته العمياء ، لكنّ « ليلى » فتاة نادرة ، لا يجود الزمان بمثلها إلاّ كما تجود الصحراء بالينابيع الغزيرة . فاختفاؤها المفاجىء في ربيعها السابعَ عشَرَ خسارةٌ لا تُعوَّض .

كانت أوّل عَلاقتي بها في المدرسة ، حين دخلنا معاً جوقة الترتيل . وانضمَّت إلينا « نهلة » ، فكنّا

ثلاث طالبات في عمر واحـــد ، نسترعي النظرَ
بتفوُّقنا في الغناء ، وبملازمة الواحدة منّا للأخرى ،
حتى كدنا لا نفترق .

كانت « نهلة » أعذَبَنـــا صوتاً ، وكنتُ أسرع
الثلاث إلى حفظ الألحان صحيحةً ، خالية من أيّ
خطإ . أمّا « ليلى » فكانت تعزف النشيد حالما تحفظه ،
ولا تخطىء في عزفه ، مع أنّها لم تدرس الموسيقى .
وقد لاحظت معلّمة النشيد مَوهِبتها هذه فشجّعتها
على درس البيانو . وبما أنّ أهلهـا كانوا عاجزين عن
تسديد قسط الموسيقى المرتفع ، عرَضت عليها المعلّمة
أن تدرّسها العزف مجّاناً إذا حصلت على علامـــات
ممتازة في دروسها .

وهكذا بدأ عهدٌ مشرِق لامع في حياة « ليلى » .
عكَفت على درس البيانو بحماسة غريبـــة ورغبةٍ
استقطبت سِنيها الأربعَ عَشْرَةَ . كانت ، إذا أنجزت
أعمالها المدرسيّة ، تجلِس إلى البيانو ساعاتٍ لا تحسّ
فيها بمرور الوقت . فإذا فاتها إتقان درسها في النهار

أنفقت في العزف شطراً من ليلها ، حين يكون سائر
أهلها غارقين في النوم . وبمـــا أنّ البيانو الذي في
المدرسة لم يكن دائماً تحت تصرُّفها ، فقد عَمَدت إلى
استئجار واحدٍ رَكَزته في غرفتها ، تعزف عليـــه
حين تشاء ، وقدرَ ما تشاء .

أخبرتني مرّةً أنّها حَلَمت في إحدى الليالي حُلماً
أفاقت منه باكية : حلمتْ بأنّهـــا تعزف على بيانو
أبكمَ لا يخرج منه أيُّ صوت . وظلّت تحـــاول
وتحاول العزف من غير فائدة ، حتى سالت الدموعّ
من عينيها غزيرةً ساخنة . وحين فتحت عينيها ،
ورأت مِخدّتهـــا مبلّلة بالدموع ، شكرت الله لأن
محاولتها لم تكن إلاّ حلماً .

كانت أصابعها دائمةَ الحركة ؛ فهي لا تفتـــأ
تعزفُ ، تلحّن ، تُهمهم لحناً يغزو سَمْعها من غير
انقطاع . وقد اتّفقنا ، نحن الثـــلاث ، « نهلة »
و « ليلى » وأنا ، على التعاون لتكوين حركة موسيقيّة
في المدرسة وخارجها . قلت لها :

- أنت تعزفين ، ونحن نُنشد ، ونؤلِّف جوقة مع فتيات أُخر . وربّما استطعنا النَّظْم ، أو لقينا منظومات نَكِلُ إليكِ أمر تلحينها .

فلقيَت الفكرة تجاوباً منها ، شرطَ أن لا تمنعها من إتمام دروسها .

كانت آمالنا كِباراً حين هجم الموت على هذه الزهرة العجيبة وسحقها من غير رحمة !

*

إنفرط عِقد الجوقة بعد رحيل « ليلى » ، كأنما فَقْدُها هدَّ عزيمتنا وكبَّل تفكيرنا . لم يخطُر ببال أيٍّ منّا أن تدرس الموسيقى اقتداءً بصديقتنا الراحلة ، وإكمالاً لعملها . هزَّتنا الصدمة هزّاً لم نُشفَ منه إلاّ بعد أن فاتنا وقتُ التعويض والمتابعة . ولم تمضِ سنةٌ حتى تركت « نهلة » المدرسة بناءً على رغبة أمّها . وشُغلت أنا بواجباتي المدرسيّة ، وبمشاكلَ عائليَّةٍ حتَمَتْ عليَّ الشغل لتحصيل المال ، فرُحتُ أستعدّ لاحتراف التعليم .

زرتُ « نهلة » بعد انقطاعها عن المدرسة بمدّة . فقالت أمُّها :

- إنّها عند الخيَّاطة ، وستأتي بعد دقائقَ قليلة ، فانتظريها .

وحين عادت قادتني إلى غرفة نومها ، وعرضت أمامي صفّاً من الفساتين الجديدة ، وصنوفاً من المساحيق والمعجونات وسائرِ آلات التجميل التي تتدرَّب على استعمالها .

جلستُ وإيّاها في غرفة الاستقبال ، وانضمَّت إلينا أمُّها ، فتدفَّقت كلتاهما في حديث الأزياء والألوان . وذكرت الأمّ تاجراً يبيع أجمل الأقمشة ، وتاجراً آخرَ يبيع أفضل العطور . حدَّثتني عن ذاك المزيِّن البارع الذي يهتمّ بشعر « نهلة » ، وأوصتني بتلك الخيّاطة التي ترضى بأجور معتدلة لتصنع أفخر الملابس . ثم قالت :

- سوف تتحقَّقين ، يا « منى » ، صِدقَ قولي ، حين تزورين هؤلاء الذين اخترتهم لتجميل ابنتي ؛

وإنّي مستعدّة لأوصيهم بك خيراً ، وأُقنعَهم بهاودتك في الأسعار ...

أدركت أنّ « نهلة » دخلت عالماً جديداً مختلفاً عن المدرسة ، تسيطر فيه أُمُّها وجماعةٌ من النساء المتعطِّلات ، يُطلقن على ذواتهنّ اسم « الشلّة » . يعقِدْن مجالس الحكي التي تستغرق معظم أوقاتهنّ ، ويتفرّغن فيها لإذاعة أخبار الخِطبة والزواج ، والحَمْلِ والولادة ، والموتِ والإرث ، والبيع والشراء ، والأجورِ والخدم . يعشن جماعاتٍ كقُطعان الغنم ، يخشَين الوحدة كخَشيتهنّ من الشغل . لا يفتحن كتاباً ، ولا يعرفن شيئاً عن أسرار العلم وروائع الفنّ . لا يستوقفهنّ منظرُ غروبٍ ولا لوحةُ تصوير .

تصوّرتُ « نهلة » غارقة حتى الأذنين في هذه البيئة ، منسجمةً مع تقاليدها ، خاضعة لأحكامها . وكأنّما كلُّ ما درَسَتْه في المدرسة لم يكن إلاّ قشرةً رقيقة يسهل انتزاعُها . تقضي وقتها متعلِّقة بأذيال

أمِّها التي تنتقل بها من حَلْقة إلى حلقة ، منتظرةً بفارغ الصبر أن يأتي اليوم الذي تتعلّق فيه بأذيال الزوج ، ثم بأذيال الابن ، أو أذيالِ أولادها جميعاً ...

كلّما زرتها حدّثتني عن فلان الذي ينوي خطبتها ، وعن فلانة التي تتحرّق شوقاً لتزويجها بابنها ؛ وعن ذاك الشابّ الذي يُعجبها ولا يعجب أمّها ، لأنّه ذو دخل محدود لا يستطيع أن يوفِّر لها السعادة والرفاهية ...

قلت :

ـ ألا تفكِّرين في الاستزادة من العلم ؟ ألا تستهويكِ المهنة ، وفلسفةُ التحرُّر ؟

قالت :

ـ تُرّهات ! ما الذي أستطيع تحصيله لو اشتغلت خمسين سنة في المهنة ؟ أليس الأفضل أن أتزوّج رجلاً يملك أموالاً كثيرة ، ويقدِّم لي حاجاتي من غير تعب أو شقاء ؟

قلت :

ـ لكنّ في الشغـل لذّةً لا نجدها في الراحة والخمول .

قالت :

ـ ليس هذا رأيي ، ولا رأي أمّي .

فأصررتُ على المناقشة بقولي :

ـ ألمال يأتي ويذهب . بينما العلم يدوم ...

فأجابت :

ـ وهل المهنةُ أضمن من الأموال والعَقارات ؟ ألا يتعرّض صاحبها للطرد والفقر ؟

ـ هذه آراء أمّك العتيقة التفكير . ما لكِ ولها . لعلّها تطمع في صهر غنيّ تعتمد عليه عند الحاجة ... أعني أنّها أنانيّة .

ـ أنا كذلك أطمع في الزوج الغنيّ الذي يقدّم لي بيتاً فاخرَ الأثاث ، ويكسوني الحرائر والمجوهرات .

ـ واذا لم يحضُر هذا المُثري الكبير ؟

ـ سأواصل السعي حتى الفوز . ولا بدَّ للصابر من الظَّفَر .

وقد ثابرت « نهلة » وأمّها مثابرةَ الجنـود في معركة مصيريّة . لم تهملا واحداً من الأساليب المؤدّية إلى إنجاح مسعاهما . لم تتركا باباً إلاّ طرقتاه ، ولا سمسارةَ عرائسَ إلا سعَتا إليها . وبعد جهـادٍ دام أربـعَ سنوات ، انفرجت الأزمة ، وصحَّ عزم الأمّ على تزويج بنتها بعروسٍ مُسِنّ ، لكنّه عظيم الثروة ، ومرشّح للحصول على إرث كبير من عمّه العازب .

*

كنت في ذلك الحين معلّمة حديثةَ العهد بالتعليم ، تستغرق المهنة جميع نشاطي . وقد شاهدتُ من غير اكتراثٍ فصولَ المسرحيّة التي قامت بتمثيلها « نهلة » وأمّها .

أعجبني القيامُ بمغامرة من نوع آخرَ ، قـد تكون أشقَّ من المغامرة التي تكلّفتها « نهلة » وأمّها للحصول على رجل غنيّ . لكنّ في مغامرتي سحرَ

الجديد ، وولوجاً إلى عالم لم تعرفه رفيقاتي القابعاتُ في إطار الماضي ، والمحدوداتُ بشؤون المـأكل والملبس .

مرّت السنون وأنا في كفاح متّصل لا أجد معه فرصة للتفكير في الماضي ، ولا في ما يجري حولي . لكنّ صورة واحدة لم تبارح ذهـني ، هي صورة « ليلى » التي اختطفها الموت وقضى على موهبتهـا الفذّة .

في أحد الأيّام فوجئتُ « بنهلة » في مكتبي ، وقد جاءت لتسلّمني بنتها الصغيرة « هيام » ذات السنوات الخمس ، والصوتِ العذب كصوت أمّهـا .. كان سروري بهذه الطفلة عظيماً . وطّنتُ النّفْس على تربيتها وتوجيهها ، وخُيّل لي أنّ وجودهـا في مدرستي يجدّد عهد صداقتي مع أمّها يومَ كانت فتاة مقبلة على العلم ، راغبةً في التحصيل . وما طال الوقت حتى ألّفتُ جوقة موسيقيّة كانت « هيام » إحـدى نجماتها اللامعات . واستقدمتُ معلّمةً تجيد العزف ،

وكنت أشارك في الغناء ، وأروي للبنات شيئاً عن كبـار الموسيقيّين وصبرهِم وكفاحهم . كنت أتكلّم بحرارة يتكهرب معها الجوُّ ، فـإذا حدّثتهنّ عن « ليلى » قلت إنّ قلبها كان ملتهباً بنار الولـع بالموسيقى ، فلم يكن فيه موضع لحبّ آخر .

كبرت « هيام »، ونما معها حبُّها للغناء والموسيقى. كانت تشرب الأنغام شرباً ، وتعيد الألحان بدقّـة عجيبة . مـا الذي حبّب إليها أصوات الطبيعة فجعلها تُنصت بكلّ جوارحها لوقع قَطَرات المطر على الزجاج ، لنُواح الريح وتساقُطِ أوراق الشجر ، لتجاوب الدِّيَكَة ورنين الأجراس ؟ وربّما سمعَت ألحاناً خفيّة لم توجد إلاّ في خيالها .

ما كان أشدّ فرَحها يوم نقلت على البيانو نغمة العصفور الصغير الذي سحرها بغنـائه ! لقد لفتت نظر معلّمتها فعزمت على إعطائها دروساً خصوصيّة في العزف من غير علمِ أمّهـا . أمّا أنا فرأيت من واجبي أن أُفاتح الأمّ في الموضوع ؛ ولكنْ ، ما إن

ذكرته لها حتى صرخت :

ـ لا ! لا ! لا أريد !

سألتها متعجِّبة :

ـ لماذا ؟

ـ لأنّي أريد بنتي ستَّ بيت لا موسيقيّة .

ـ لن تمنعها الموسيقى من أن تكون ستّ بيت .

ـ لا ! لا ! لا أريد لابنتي هذا الفنَّ المُضني الذي كلَّف « ليلى » حياتها وساقها إلى موت مبكِّر .

ـ ولكن ، يا عزيزتي ، لا تستسلمي للأوهام ...

فقاطعتني قائلة :

ـ إنّي أؤمن بالنَّحس ، وأعرف أنّنا جميعاً ألعوبةُ القدَر ، فلا يجوز لنا أن نُعانده . قلبي يحدِّثني بأنّ « هيام » ستموت مثل « ليلى » إذا درست الموسيقى .

فصرخْتُ :

ـ كلُّ هذا محض وَهْمٍ يجب أن تتخلَّصي منه !

ـ لا . لا . ليس وهماً .

ماذا أصنع ، وكيف أُقنع هذه المرأة المتحجِّرة الفكر ؟ جرَّبت آخر سهم في جَعبتي ، فقلت :

ـ أتعهَّد لك بأن أعتني بها أشدَّ اعتناء . إذا أُصيبت بأقلِّ وعكة أو ضعفٍ أو ملل تتوقَّف عن درس البيانو .

فكَّرتْ « نهلة » برهة ، ثم قالت :

ـ أتَعِدينني وعدَ شرفٍ بأن لا تدعيها تتعب ؟

ـ نعم . وعد شرف !

ورضيَت أخيراً بعد تردُّد .

★

وبدأ كفاحي لوقاية « هيام » من أيّ انحراف صحّيّ . وأصبح سهري عليها ورعايتي لها عملاً مُضنياً : إذا وَجِعَها رأسها تألَّمتُ معها ، وسارعتُ

إلى إعطائها المُسكِّن والعلاجَ السريع المفعول قبل أن تشكو أمرها إلى أمّها ؛ إذا عجزَت عن إتمام درسها في النهار منعتُها من سهر الليل وتساهلتُ في تقويم نشاطها .

مرَّت السنون من غير حادث يُذكَر . وصارت « هيام » بارعة في العزف ، كما امتازت بخُلق رَضِيّ ، مرِح ، جعلها فتنةً لكلٍّ من رآها ، وجعل الناسَ يلهَجون بذكرها .

قُبَيل تخرُّجِها من معهد الموسيقى ببضعة شهور بدت عليها علاماتُ الذبول . وما لبثت حتى لزمت الفراش وانقطعت عن الدرس .

أُصبت حينذاك بصدمة عنيفة وخوفٍ مريع . ها قد بلغت « هيام » سنَّ الخطر ، السِّنَّ التي أماتت « ليلى » ! هل قُدِّر لمشروعي أن يُخفق ؟ لا ريبَ في ذلك ! إذا لم تمُت « هيام » فسوف تمتنع عن درس الموسيقى وتذهب كلُّ آمالنا هَباء !



ظلِلْتُ أُصلِّي وأبتهل ، وفي قلبي شعورُ يأسٍ
استطعت ، بعد جهد ، أن أتغلّب عليـــه . حملتُ
قلبي في يدي ، وأخذت أزور « هيام » حاملةً إليها
الأدوية المقوِّية ومأكولاتٍ تثير الشَّهيَّة . خُيِّل لي
بعد قليل أنّ « هيام » تعود إلى الصحَّة شيئاً فشيئاً ،
وأنّ خدَّيها يكتسيان بحمرة طفيفة . أصحيحٌ هذا ،
أم وهمٌ وتعليل ؟؟

في أسبوع الامتحانات تركت الفتاة فراشها فجأة .
إشتركت في الامتحانات ، ونالت علامـــة جيِّدة ،
وحصلت على شهادتها بامتياز . وكان ذلك اليوم أسعد
يوم في حياتي . لكنّي ما زلت أتساءل عن أسباب
مرضها وشفائها المفاجىء ، حتى أخبرَتْني سرّاً أنّ
جدَّتها كانت قد هيّأت لها عروساً مثرياً طلب أن
يتزوَّجها ويسافرَ بهـا إلى « افريقيا » في خـلال
أسبوعين ؛ فما كان منها إلاّ أن مرضت ، أو تمارضت ،
حتى غضب العروس ، وتزوّج غيرهـا وسافر إلى
« افريقيا » !

*

لم تمرض « هيام » من الدرس والإرهاق ، بل من
جوّ الضغط الذي رافقها في منزل والديها . كشفت
لي أموراً لم أعرفها . حدَّثتني عمّا كان بين والدَيها
وجدَّتها من نفـــور مستحكِم . ووصفَت لي حالة
الخضوع التي تلتزمها أمّها وجدّتها وتخفيانهـــا عن
الناس كِبراً وتجبُّراً . قالت إنّهما ترضيان بهذه الحالة
لأنّهما تجدان عِوَضاً في حياة الترف والرفاهية . أمّا
هي ، فلا تغريها حياتها هذه ، بل تريد أن تكون
حرّة نظيرَ العصفور الذي نقلت أغنيتـــه . لقد
وجدَت العمـــل الذي يمنحها سعادة ، وينقذها من
القلق والضِّيق اللَّذين يسيطران عليهـــا في بيتها
الوالديّ .

كنت أُصغي إليهـــا مبتهجة . وإذ ألقيتُ على
عينيها نظرة نافذة ، لمحتُ فيهما ذاك اللهيبَ الذي
كنت ألمحه في عينَـي « ليلى » .

كانت « هيام » ملتهبة الروح بنار خفيَّة لا نعرف
كيف تأتي ، ولا من أين تأتي ، لكنَّها تَجرُف كلّ
ما يقف في طريقها ، ولا تدع مكاناً لشيء آخر .

الفديَة

ليس في القرية من يجهل « هندومة » . فاسمها أشهر من نار على علَم . ولو سألتها لِمَ وكيف نالت هذه الشهرة لم تستطع الجواب ، لأنّها لم تفكّر يوماً في الشهرة ولا في أسبابها . لكنّ أهل الفضول في القرية يحاولون اكتشاف الأسباب ، فمنهم من يردّها إلى طرافة الاسم : « ليس في القرية هندومة أخرى » ؛ ومنهم من يرى شهرتها مرتكزة على بيع لوازم التبّولة واحتكارها لهذه التجارة في قريتها ؛ فعندها في البستان الملاصق للبيت ، والذي لا تزيد مساحته على خمسة أمتار مربّعة ، ينمو البقدونس والنعنع والبصل والبندورة والليمون الحامض في

جميع فصول السنة ، وكلّ من اشتهى التبّولة من نساء وبنات وطلّابِ أُنسٍ ما عليه سوى أن يَقصِدِ « هندومة » ، فتبيعه الخضر النديّة بأسعار معتدلة .

لم تقتصر مكاسبها على ما تجنيه من بيع البَقل والخضر ، بل إنّها تبيع البيض والفراخ . وتَعلِف خَروفاً تخزُن دهنه للشتاء ، وتغزل صوفه . وهي تشتري الصوف ، وتَحوك منه الجوارب والقمصان وتبيعها للمترَفين من أهل القرية .

كان لها زوج وثلاثة أولاد . وبفضل شهرتها في الحيّ ، وأهمّيّتها في البيت ، غلبت نسبة الأولاد إليها بدلاً من أبيهم ، فهم « إبراهيم هندومة » ، و « مرتا وراحيل هندومة » . أمّا زوجها « فارس » فكان رجلاً بديناً ، طويل القامة ، عريض المَنكِبين ، يعمل في حرفة البناء من زمن طويل ، فيسمّونه « المعلّم فارس » . وكان ضخم التقاطيع ، بارز العينين ، على جانب كبير من البشاعة ، لكنّ

زوجته كانت تراه آية في الجمال ، وتشكر الله الذي منحها إيّاه .

على أنّ في « فارس » خَصلة لم تعجبها : فهو مدمنُ الدخان والعَرَق ، وهي عادة إذا لم تؤثّر في صحّته فقد أثّرت في جيبه ، واستهلكت كثيراً من النقود التي تدرّها حرفته . وربّما زاده استرسالاً في غيّه تساهلُ زوجته ، فهي ، مع شدّة حرصها وشكواها من تبذيره ، تجور على نفسها لكي ترضيه ، وتجد لتصرّفه الأعذار المبرّرة ، فتقول لجاراتها :

ـ ألرّجال لا يستطيعون ضبط نفوسهم كالنساء . وليس لهم صبر مثلنا .

حين يعود من عمله مساء تُهرَع للقائه : تقدّم له الماء الساخن ، وتغسل رجليه ، ثم تناوله ثياباً نظيفة بدل ثيابه المبلّلة بالعرق . وإذا كان في الخزانة بضع بيضات قلَتْها جميعاً في السّمن وقدّمتها للزوج والأولاد ، واكتفت هي بالجبن والزيتون ، أو

أكلت فَضَلاتهم ، وباتت مغتبطة بهذا الحرمان .

حاولت التشبّه بأصحاب الثروة وكبارِ القوم ، فملأت بيتها أثاثاً حشرته في الغرف بشكل يخلو من الذّوق ؛ لكنّها لم تخشَ الظهور أمام الناس بثياب قديمة بالية لاعتقادها أنّ المرأة ، متى تزوّجت ، لم تعُد في حاجة إلى الاهتمام بمظهرها ، لاسيّما إذا كان عندها بنات . وبذلك استطاعت أن توفّر لبنتَيها من المال ما أمكنها من مشترى كمّية من الحلى الذهبيّة ، فكانتا تمشيان في شوارع القرية وقد اكتست مَعاصمهما بالأساور الرّنانة ، ونحُورُهما بالعقود اللمّاعة ، ممّا جذب إليهما أنظار الخاطبين ، ومهّد لهما سبيل زواج باكر .

لكنّها صُدمت في آمالها بزواج الصبيّ . فقد انتقت له فتاة من ذوي قُرْباها ، كانت تصطنع أمامها النشاطَ والحركة ، وتُظهر لها الحبّ والإعجاب ... ولكنْ سُرْعانَ ما تغيّرت طباعها بعد الزواج ! لقد صدق من قال إنّ البنت صندوق

مقفل ! فالكَنَّة فتاة نَؤوم كسول ، تُضمر غير
ما تظهر ، تتَّكل على حماتها في كلّ شيء ، ولا يهمّها
اقتصاد ولا توفير . منذ يوم دخولها أخذت تتأفَّف
وتقول :

ـ إنّ الطبخ على الحطَب متعب جدّاً . لماذا لا
نشتري بابور كاز ؟ وهذا القنديل الذي يحتاج إلى
تنظيف وتعبئة كلّ يوم ، ألا يمكن استبدال
الكهرباء به ؟

لكنّ « هندومة » وقفت حاجزاً منيعاً في وجه
كلّ تجديد ، وأخذت تردّد :

ـ كما عاش أجدادنا يجب أن نعيش .

ثم تدقّ صدرها وتقول :

ـ أنا أطبخ على الحطب ، وأنا أنظّف القنديل ،
وأوقد السراج لأقرّص العجين قبل طلوع الضوء ...
كوني مرتاحة !

ومع أنّها كانت تكره كنّتها أشدّ الكُرْه ،

وترى عيوبها مضخّمة ، لم تجد حرجاً في مُمالقتها
وملاطفتها ، فلا تناديها إلاّ بقولها : « يا عيوني ،
يا بنتي » ، لعلّها بذلك تُغريها بالشغل وتحبّب
إليها التوفير .

إحتملت « هندومة » خيبتها بصبر ، وظلّت تقوم
بأشغال البيت التي أهملتها كنّتها ، وتجتنب كلّ
مشاجرة خوفاً من أن تثير حالتُها فضول الناس
وشماتة الحسّاد . وكان زوجها قد أُصيب بمرض في
عينيه أقعده عن العمل ، فكانت هي وابنها ، الذي
اتّخذ حرفة أبيه ، يحصّلان بشغلها ما لم يمكن
تحصيله في عهد نشاط الوالد . ورغم تقدُّمها في السنّ
بقيت تجور على نفسها ، وتكتُم الأوجاع التي هاجمتها ،
وتواصل أعمالها من بيع وحياكة ، حتى هُزل
جسمُها ، وغارت عيناها في مِحْجَرَيها . وأخذت
الجارات يتساءلن: « ما بال هندومة تذوب كالشمعة ؟ »
وسألتها إحداهنّ :

ـ ماذا أصابك يا « هندومة » ؟ ما هذا الهُزال ؟

فأجابت :

– لا شيء ... جسمي مثل الحديد والحمد لله . لكنّ الأيّام تغيِّر الإنسان ... وهل رأيت عجوزاً تعود صبيّة ؟

وكانت تقول لنفسها : « نحن بألف خير . فقط أرجو من الله أن يبعد الأمراض ، ويردّ عنّا عيون الحاسدين ! » لكنّ دعاء « هندومة » ظلّ هذه المرّةَ عقيماً : فقد انتشر في القرية داءُ الحمّى ، وأُصيب به حفيدها البكر الذي دعوه « فارساً » ، تيمُّناً باسم جدّه ، وكان أحبَّ أحفادها إليها لأنّه الصبي الوحيد بين ثلاث بنات . واشتدّ مرضه اشتداداً أشاع القلق والخوف في نفوس مَن حوله . وكانت الجدّة أشدَّهم خوفاً وهلَعاً : فقد انهارت عزائمها دفعة واحدة ، وهي التي عُرفت فيما مضى بالصلابة ورباطة الجأش ؛ وصارت كريشة في مهبِّ الريح ، تفرك يديها وتردِّد من غير وعي : « كلُّها إصابة عين . لا شيء يخرب البيوت كالحسد ! لقد أصابونا

بسهامهم رغم نعل الفرس المعلَّقة فوق الباب منذ أربعين سنة ! ولكن لا بأس !.. سنردّ كيدَهم بإذن الله ! »

أخذت تسهر الليالي بجانب الولد المريض : تَعُدُّ أنفاسه ، تسقيه الدواء ، وتأبى أن يشاركها أحد في تمريضه ، تجلِس مشعّثة الشعر ، غائرة العينين ، لا تذوق طعاماً ، تقرع صدرها وتصلّي إلى الله لكي يشفيه : « يا إلهي ! أيموت الصبيّ وتبقى البنات ؟... لا فجيعة أكبر من هذه ! اشفق علينا يا إلهي ! »

والصبيّ ، تلك الليلةَ ، في غيبوبة مستحكِمة ، قد ألهبت رأسه الحُمَّى ، وضاق تنفُّسه ، وجمَد في سريره كقطعة من خشب . والجدّة راكعة بجانبه ، ملهوفة القلب ملتاعة ، تنقل عينيها من فراش الولد إلى سقف الغرفة كأنّها تستمطر مَراحم السماء . وفجأة خطر لها خاطر ، فنهضت مسرعة . ومن غير أن تلتفت إلى ثيابها المهلهلة ، وإلى شعرها المتشعّث ، خرجت إلى العَراء ، واندفعت راكضة

نحو الكنيسة المجاورة ، فأيقظت الخادم الذي ما زال نائماً ؛ حتى إذا فتح لها الباب دخلت وانطرحت قرب المذبح ، وعفَّرت جبينها ، ووضعت هناك حليتها الوحيدة : زوجاً من الأقراط ورثته من أمّها . ثم قرعت صدرها وردَّدت قائلة : « إذا كان لا بدَّ من روح تأخذها فلتكن روحي يا إلهي ! خذها ! خذها واشفِ الولد ! » ثم عادت إلى البيت تجرُّ رجليها ، وانهارت على الأرض فاقدة الوعي .

*

وفي اليوم التالي كان أهل القرية يتناقلون خبر أعجوبة حدثت في بيت « فارس » . فإنّ الحفيد الصغير أصبح وقد زالت عنه الحمّى وتماثل إلى الشِّفاء ، بينما كانت جدَّته تلفظ أنفاسها الأخيرة .

وكان الجميع يردِّدون القول : « مسكينة ! قد استجاب الله دعاءها ، وأخذ روحها عوض الصبيّ » .

وبهرهم ذكر الأعجوبة ، فلم يحاولوا أن يجدوا لموتها سبباً آخر .



البَيْتُ القَديم

قالت « نائلة » وهي تضع يدها على مِقوَد السيّارة :

ـ ألا تشعرين برغبة في الهرب من جوّ المدينة الأغبر ؟ تعالَي أحملْك بسيّارتي إلى قريتي الساحليّة المواجهة للبحر ، لا يفصلها عنه سوى بساطٍ دائم الُخضرة . نحن الآن في أوائل الربيع ، وسيطيب لنا الاستمتاعُ بمفاتنه المنوّعة ؛ وأشدُّها فتنةً ، في رأيي ، أشجارُ اللّوز متلفّعةً بأثواب عُرسها الناصعةِ البياض ...

قلت :

ـ تتكلّمين كشاعرة ، مع أنّك بغير حاجة إلى الشّعر لتُغريني بمرافقتك . ها أنا مستعدّة للرحلة بعد أن أعتمر قبّعتي التقليديّة أتّقي بها شمس القرية .

كنّا ، ونحن نتقدّم نحو المكان المقصود ، نشعر بأنّ هواء جديداً يتغلغل في صدورنا ، يكتسح منها الأفكار السوداء ، ويُسبغ عليها خِفّته المنعشة .

ما عتّمت السيّارةُ أن دخلت بنا في طريق ضيّق نبتت عن جانبيه أعشابٌ نديّة ، وفي نهايته بدا لنا البيتُ القديم يحِفّ به بستان مدرّج حوى أنواعاً من الأشجار الساحليّة المثمرة : البرتقال ، الأكي دنيا ، اللوز ، الزيتون ، الرمّان . وما هي إلاّ لحظةٌ حتى فتحت « نائلة » البوّابة الحديد ودخلنا .

وقفت أتأمّل سرّ الجمال في البيوت القديمة . ألدرجات التي نصعد منها إلى البيت مصنوعة من حجارة عريضةٍ مَلساء ، يتماوج لونها بين الصّفرة

والبياض ، وقد نبت في الشقوق التي بينها خطوطٌ رفيعة من العشب الأخضر الطّحلبيّ . ما أبعدَنا هنا عن سلالم الأسمنت المصبوبة في قوالبَ مُصمَتةٍ ، لا انفراجَ بينها ، ألوانُها رتيبة قاتمة ، لا تموّج ولا لَمَعان !.. هذه البيوت القديمة أبنية مقدودة من صخورنا ، مقتطَعة من قلب الأرض ، راسخة رسوخَ الطبيعة . كلُّ حجر فيها يحمل أثراً من الأيدي التي لامَسته ، والأرجل التي وطئته ، يبعث نفحةً من النفحات التي تنشّقها الأجداد !.. يحكي حكاياتهم !..

كنت غارقة في التفكير ، أنتقل كالشّبح من غرفة إلى أخرى من غرف البيت القديم ، حين وقفَت بي « نائلة » في الرّدْهة وقد بدا في سقفها آثارُ الدخان المنبعث من الموقد الذي كان يتوسّطها .

قالت « نائلة » :

ـ كنت أحسَب نفسي أبعدَ الناس عن الخضوع

لسِحر الذكريات والأحلام العاطفيّة ... في المدرسة انجرفت بتيّار العلوم الطبيعيّة والرياضيّة ، وأصبحت شديدة النفور من دنيا الأشباح والأرواح ؛ بل خطر لي تاليفُ جمعيّة « اللاعاطفيّين » ، أو أعداء العاطفة . كنت حينذاك ثائرة على مغالَيات الرومنطيقيّين ورقّتِهم المصطنعة ، ولكنْ ... حين أزور هذا البيت تنتابني رعشة ، وتنبعث في ذاكرتي صورٌ ومشاعرُ غريبة ... أحسّ برغبة في لمس الحجارة وتقبيلها .

توقّفت « نائلة » لحظة تستجمع أفكارها ، ثم قالت :

ـ هنا ، على هذا المقعد الذي لم يبقَ منه إلاّ هيكلٌ متهدِّم ، كان يَجلس جدّي متربِّعاً وبجانبه أركيلةٌ دائمة القرقرة لا تفارقه ، وعلى رأسه طربوشُه القاتمُ الحُمرة محاطاً بلفّة صغيرةٍ سوداءَ ، دليلَ حِداد دائم . في أيّام البرد ينعم بدفء الأركيلة ، ودفءِ الموقد النُّحاسيّ الكبير ، ودفء العَباءة

المصنوعة من وبر الجمال ، فيشبه في جلسته على المقعد الواسع الوثير أميراً من أمراء العهد الشهابيّ .

« كان جدّي كثيرَ الصمت والتأمّل ، هادىء الوجه والحركة ، تجمّعت في نظراته حكمةُ السنين . إذا خاطبنا انفرجت شفتاه عن ابتسامة معسولة ، وفاضت في كلماته رنّة العطف الذي ملأ قلبه نحونا . أصحيحٌ أنّ في الشيوخ تلهُّفاً وشوقاً إلى أيّام صباهم ، يتجسّد في حبّهم للأحفاد وسواهم من أبناء الجيل الجديد ؟

« كنت ألمح في نظراته الهادئة حناناً يلقي على وجهه الأسمر المُشْرَب بالحُمرة إشراق الصبا وزهوَته . ومع هذا كنّا نزداد منه نفوراً كلّما ازداد رغبة في محادثتنا والتحبُّب إلينا . ولا أستطيع تفسير ذاك النفور . أتراه شعوراً غريزيّاً عند الولد الشديد الإحساس بفارق السِّنّ والمظهر ؟ أكنّا نهرب من رائحة أركيلته التي تغلغلت في ثيابه الكثيرة الطيّات ؟ أم كان نفوراً تسرَّب إلينا من والدنا

العصبيّ المزاج، السريعِ التأفّف، القليل الرغبة في عشرة الناس، لا سيّما عشرةِ حميه الدَّمِث الخُلق، الكثير الملاينة والتُّؤدة؟

« كانت أمّي ترى في والدها مَثَلَها الأعلى لأنّها كانت أثيرة عنده، يحبّها أكثرَ من سائر أولاده. إذا أرادت مشترى أثاث أو قماش اعتمدت على ذوقه لأنّه كان في شبابه تاجراً. وكنتُ في الثامنةَ عَشْرَةَ حين أوصته بأن يشتري لي قماشاً لفستان العيد. كان هذا الفستان من حرير شديد النعومة، باهر الألوان. قالت أمّي إنّه أجمل فستان لبستُه في حياتي ... يكفي أنّه نال إعجاب كلّ مَن رآه، وجذَب حولي أنظار الخاطبين، فلم تمضِ السنة حتى تزوّجْت. ومع هذا لم يحظَ جدّي بكلمة شكر أوجّهها إليه. رأيتُ عمله واجباً لا يستحقّ الشكر، ورأى في موقفي نزْوةً من نزَوات الصبا، فلم يقابلني إلاّ بالابتسام ».

هنا لمحتُ في صوت « نائلة » تهدّجاً يدلّ على

حزن عميق، ورأيت الدموع تكاد تطفِر من عينيها حين قالت:

ـ عاش هانئاً، صابراً، راضياً بالكَفاف. كان يقابل رُعوننا بابتسامة سَمْحة فلم تجرحه تصرُّفاتنا الصبيانيّة، وهذا ما يعزّيني. لكنّ قلبي ينعصر ألماً كلّما ذكرتُ خشونتي نحو ذاك الرجل الكبير.

توقّفتْ « نائلة » فجأة أمام صورة معلّقة على الجدار، حال لونُها حتى اندمج بلون الجدار الترابيّ.

ـ إنّها صورة جدّتي، وهي، رغم زوال معالمها، تكشف بعض ملامح صاحبتها، وتريكِ شيئاً من شخصيّتها الفذّة. ما زالت عيناها تتكلّمان، وقامتها النحيلة تستعدّ للوثوب ... كانت سيّدة البيت دون منازع، تملأه بحيويّتها ونشاطها، فهي الطاهية والمربّية والخيّاطة والمدبّرة. سمّيناها « الحركة الدائمة » لأنّنا لم نرَها إلاّ منهمكةً في أحد الأعمال

المنزليّة التي تجلّى فيهـا نبوغها ... شعارُها :
« من اشترى المليح اشترى ماله » ، فكانت لا تشتري
إلاّ القطعة المتينة التي تقـاوم الدهر . أنظري
خزانتها ... (وأشارت « نائلة » إلى خزانة كبـيرة
جَوزيّة اللون) لقد عاشت هذه الخزانةُ ستّين سنة ،
وتستطيع أن تعيش ستين أخرى . وقـد حرصت
جدّتي على تنظيفها وتلميعها والمحافظة عليها ، لأنّها
كانت مولعة بالنظافة حتى الوسواس . إذا نظّفت
الأرض أو المجلى أو الصحون ، يجب أن تخرج من
بين يديها كما خرجت من يد صانعها الأوّل ، تلمع
وتصفّق شكراً للأيـدي الساحرة التي نظّفتها .

« قبل أن أنسى ، يجب أن أُخبركِ بحادثة السلّم
التي كادت تفقد فيها حياتَها .

« كان ذلك قُبَيل العيد الكبير ، حـين تقوم
نساء القرية بالتنظيفة الكبرى التي تستغرق عدّة أيّام.
يقلِبن كلَّ شيء رأساً على عَقِب ، ولا يتركن زاوية
أو سقفاً أو جداراً إلاّ أمرَرْن عليه المِكنسة ، أو

المِسْعَفة ، وهي سَعَفة نَخْل تنظّف بها السقوف
الشديدة الارتفاع آنذاك . وقـد انتهت جدّتي من
أعمال التنظيف المُضنِية ، وجلسَت على المقعد الكبير
الموازي لجدار الردهة ، لتستريح من أعمالها كما استراح
الله في اليوم السابع . وكان جميع سكّان البيت قـد
خرجوا لقضاء النهار في السهل ليتفرّجوا على دِيدان
القَزّ ، أو ديـدان الحرير ، وهي مُقبلة على التهام
ورق التوت بعد صيامها الأوّل ، وقـد حملوا معهم
سلّة يملأونها من ثمـار التوت الحلوة البيضاء التي
يدعُونها « الكبوش » . وفيما كانت جدّتي تلقي على ما
حولها نظرةَ ارتياح ، رفعت نظرها إلى أعلى جدار
غرفتها المواجه للردهة ، وما راعهـا إلاّ عشبةٌ
خضراءُ عريضة الورق – يسمّونها القزّيزة – تطلّ
من الشرّاقة الوحيدة التي تنفُذ منهـا الشمس ،
تمـدّ فروعها وتتحدّى جـدّتي بنظرةٍ سخرية
واستعلاء .

« يا لها من عشبة وقحة ! كيف استطاعت أن

تنمو وتمدّ عروقها في ذاك المرتفع عن غير أن يدري بها أحـــد !؟ عشبة في أعلى جدار الغرفة ، تستطيع أن تحفر وتمتدّ وتتغلغل في قلب الجـــدار وينتهي أمرها بهدمه ! لا بدّ من القضاء عليها !

« هكذا فكّرت جدّتي . وقفزت عن مقعدها تلك القفزةَ العصبيّة التي تُحوِّلها إلى بركان يَغلي . حملت السلّم الخشبيَّ الطويل المسنَد إلى الجـــدار الخارجيّ الذي يُصعَد منـــه إلى السطح . أسندت السلَّم إلى جدار غرفتها ، وتسلّقته بخفّة الصبيّ المراهق . ثم وضعت قبضتها الحـــديديّة على العشبة الملعونة ، وبحركة عنيفة اقتلعتها من جذورها . وإذا بالسلّم يتحرّك ويهتزّ ، ويأخذ في الهبوط منزلقاً على الأرض الملساء ، مهدِّداً إيّاها بموت محتوم . فما كان منها إلاّ أن ألقت بنفسهـــا من أعلى السلّم ، سابحةً في الجوّ من علوّ نحو عَشَرةِ أمتار ! وبلغت الأرض سالمةً ، في حين كان السلّم يهوي ويصل إلى الأرض ، منطرحاً عليها بقرقعة عظيمة ، فيعيد إلى

الذهن ذلـــك التنّينَ الذي طعنه فارس الحكاية فسقط صريعاً بعد أن أطلق صيحة ارتجّت لها الأرض !..

« حين عاد أعضاء الأسرة إلى البيت وأخبرْتهم بما حدث ، ظنّوا نجاتها أعجوبة . وتفقّدوا مفاصلها وأطرافها لعلَّ فيها كسراً أو التواء ، فلم يجـــدوا فيها أيّة عِلّة .

« وظللنا بعد ذلك بمدّة طويلة نتنادر بحـــادثة السلَّم التي سمَّيناها « حادثة الطيَرَان » ، فنسأل جدّتي :

ـ أخبرينا يا جدّتي كيـــف طِرتِ ؟ كيف هوَيتِ كالنجم من أعلى إلى أسفل ؟ وبماذا شعرتِ حينذاك ؟

« فتجيب :

ـ لا أدري . سلَّمتُ أمري لله فأنقذني .

« وقُلْت :

- سقطتِ كالمِظَلّيّين . لا أرى إلاّ أنّ تنّورتك الواسعة الفضفاضة انفتحت كالمِظَلّة لتهبط بك إلى الأرض هبوطاً رفيقاً ، سليماً ، رائعاً ! ...

« فتضحك وتقول :

- لم أفكّر في هذا قطّ .

« وتقول أمّي لها :

- كلّ الحقّ عليكِ ! لو لم تكن الأرض شديدة الملاسة من كثرة الفرْك والحفّ ، لما انزلق عنها السلّم .

« وقال أبي :

- لو لم تقفزي في الجوّ لهويتِ مع السلّم وتكسّرت عظامك !

« قلت :

- وذهبتِ شهيدةَ النظافة !

« فتجيب جدّتي :

- نعم . الاستشهاد في سبيل النظافة أعظم استشهاد ...

« إلى جانب ولعها بالنظافة كانت مولعة بالعمل في البستان ذي الأشجار المثمرة ، تقضي فيه شطراً كبيراً من وقتها ، مكبّةً على نكش الأرض وسَقيها وتعشيبها ، وتشذيبِ الأشجار .

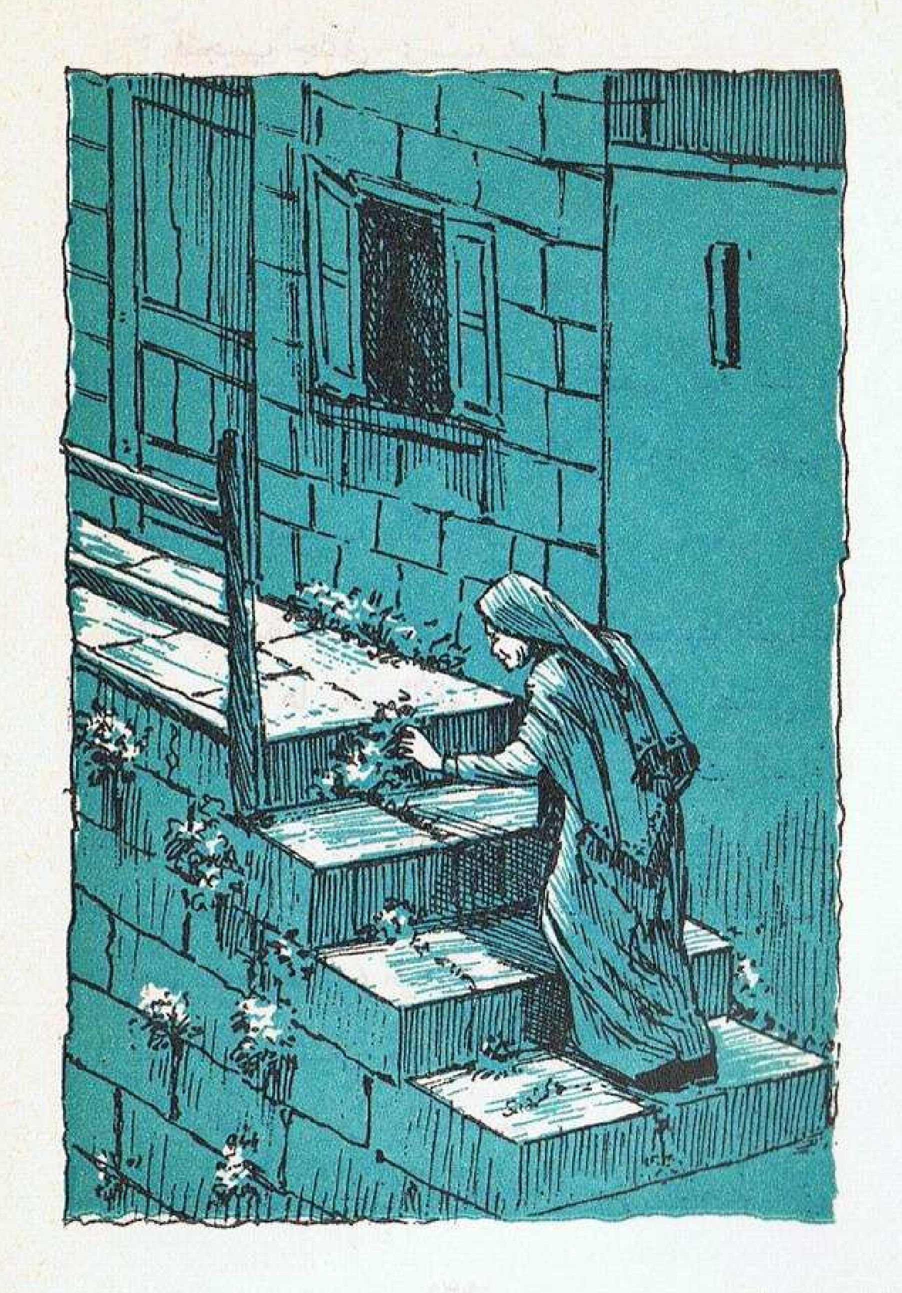
« كلّما نهضت من فراشها صباحاً فتحت النوافذ وصوّبت نظرها نحو الأفق تستطلع حالة الطقس . في فصل الشتاء يُشرق وجهها إذا وعدتِ السماءُ بالمطر ، ويكمَدُّ إذا رأت المطر بعيداً . وفي أوقات الجفاف يستولي عليها ذهول وانقباض لا يفارقانها حتى عودة الأمطار ، فيعود إليها مرحُها ونشاطها . رُزقت اثني عَشَرَ ولداً - كما تقول - مات أكثرهم في سنّ الطفولة ، ولم يسلم منهم إلاّ خمسةٌ . تزعم أنّهم جاءوا في السنين العجْفاء ، سني القحط التي

طال فيها انحباسُ المطر ، فوُلدوا ضِعافاً ، فاقدي النشاط ، قليلي التغذية .

« كانت بنتها الصغرى « رضا » فتاة في مثل عمر أحفادها . ولدت بعد زواج أمّي ، بكرِ الأسرة ، ببضع سنوات . كانت طويلة القامة كأمّها ، نحيلة ، شَمْعيّة اللون ، شديدة الإحساس بتقلّبات الجوّ . ورغم حرصها على صحّتها كانت سريعة العطب ، تنتابها أعراض وأوجاع مختلفة ، فتقول الأمّ :

ـ « رضا » وُلدت في سنة قحط . وعاشت رغم الزمن .

« كانت الفتاة تُنفِق أكثر وقتها في مطالعة قِصص الجنّ والسَّحَرة ، ترويها لنا بشيء من التهويل والتزويق . وبأصابعها الطويلة ، الرشيقة ، تصنع لعباً وأزهاراً وأشياءَ أخرى تخترعها وتعطيها أسماء غريبة ، فتُهدينا مصنوعاتها ، وتهمس في



آذاننا قائلة :

ـ لست من طِوال العمر . أريد توزيع تركَتي قبل أن أموت . قرأتُ حظّي في ورق اللعب ، قرأت في فنجان القهوة وفي كتاب النجوم ، فتبيَّن لي أنّي لن أعيش بعدُ أكثرَ من سنتين .

« لم يمضِ على هذا الحديث أكثرُ من سنتين حتى تحقّقت نبوءة الفتاة . أصابها مرض غريب ، فلزمت الفراش وأصبحت عاجزة عن المشي . وأقامت أمّها بجانبها تعالجها وتقضي حاجاتها من غير أن تُهمل أعمالها البيتيّة .

« كانت جدّتي ، حين مرضت بنتها الصغرى ، امرأة متقدِّمة في السنّ ؛ فقدَت زوجها منذ حين ، وبقيَت وحدها في البيت القديم مع هذه الفتاة التي كانت في نظرها بمثابة شجرة من شجرات البستان ، تتعهّدها بعنايتها ، تقف على خدمتها أكثرَ ساعات نهارها وبعضَ ساعات ليلها ، فلا تذوق راحة

ولا تعرف استكانة ، لأنّها تنتقل من غرفة « رضا » إلى البستان ، ومن البستان إلى غرفة « رضا » .

« وأخذت « رضا » تذوب كالشمعة ، وأُمّها واجمة ، مسبَلةُ الجفون من التعب والإرهاق ، أو من الهمّ والقلق . أخيراً ، في صباح يوم ربيعيّ ، انطفأت « رضا » . رقدت رقدتَها الأخيرة ، وفي وجهها صفاء الربيع ونقاء العطور . من ذلك الحين أيقنتُ أنّ الموت يستطيع أن يكون شيئاً جميلاً .

« على أثر موتِها انهارت جدّتي دفعة واحدة . إنهارت مثل لوح زجاجيّ تفتَّت قِطعاً لا سبيل إلى جمعها . نفِد الزيت من سراجها يوم ماتت « رضا » ، فلزمت هي أيضاً فراشها ، منهوكةً لا تقوى على المشي . لكنّها ، رغم وَهَنها ، كانت تنهض من فراشها أحياناً على غير وعي ، متوكِّئة على الجدران ، تتفقّد البيت وتُمرّ يدَها على الخزائن

والمقاعد وباقي الأثاثات لترى أنظيفة هي كما كانت أم علاها الغبار ؟

« وأخذت تجازف في الخروج إلى الشرفة ، لتطلّ على البستان وتعاينَ شجراته . ثم تنزل السلّم الحجريّ وتدنو من هذه الشجرة وتلك ، تلاحظ مقدار نموّها وحَمْلها . حتى وجدوها أخيراً ميتةً تحت شجرة الرمّان القريبة من الدرجات التي طالما ارتقتها صعوداً ونزولاً إلى البستان .

« ماتت جدّتي معانِقةً الشجرة . ولا أشكّ في أنّ عروق جسمها امتدَّت بعيداً لتتّصل بجذور شجرات البستان ، فتغذّيها برُفاتها كما غذّتها في حياتها وأحبَّتها حتى الفناء ... »

★

وفركت « نائلة » عينيها كمن يستيقظ من حُلم ،

ثم قالت :

– أرأيت سبب حرصي على هذا البيت القديم ؟ لقد عايشتُ فيه أشخاصاً ما زالوا أحياء فيّ ، وسأظلّ أعايشهم في ما بقي لي من سنين .

خَلف السّتَار الفِضّي

« ألف سنة في عينك يا ربُّ
مثل أمس الذي عـــبر »

رأيت في الحلم أنّي مُتُّ المِيتـةَ التي أحلُمُ بها . إنطفأت روحي في الجسد كانطفاء السِّراج الذي نفِد زيته وذاب نوره من غـــير حِسّ ولا حركة . وصعدتْ إلى خالقها طليقةً مستبشرة ، واستطاعت أن تقف أمام صاحب العرش وتخاطبَه متوسِّلة :

ـ ما دامت الحياة الإنسانيّـة تنتهي بفاجعـة الموت ، ألا يمكن أن تجري النهـاية على غير الطريقة المأسويّة المعروفة ؟ ألا يستطيع الإنسان أن يموت

كما تموت الأزهار ، من غـــير عذاب المرض وألمِ الاحتضار ؟

فعبثَ الباري تعالى بلحيته البيضاء ، وقال :

– إنَّك من شعبٍ غيرِ حربيّ ، لم يتعوَّد الصبرَ على الألم .

أجابت روحي :

– نعم . إنّي من شعب لم يخُض غمار الحروب ، لكنّه احتمل ألم العبوديّة وصَبَر عليها طويلاً ولم يَثُر . وفي رأيي أنّ من واجب الإنسان أن يثور على الألم مهما كان نوعـــه ، جسديّاً كان أم نفسيّاً .

فقال :

– إنّ للألم فوائده ، وهو في الحياة ضرورة .

فتابعت روحي الجدال قائلة :

– إنّ الألم مفيد إذا كان مثيراً للكفاح . ولكنْ

ما فائدةُ ألم المريض والمحتضر ؟

فأجاب الخالق :

– إنّ ألم المريض حافز له ولغيره على مكافحة مرضه . لقد تركنا للإنسان حرّية السَّعي ، ومهَّدنا له سبيل كفاح المرض والموت ، لكنّه يلهو عن ذلك بخلق أسباب الموت .

وعادت روحي تسبح على أجنحة الأثير . فخطر لها أن تجتاز الستار الفضّيَّ الذي يفصل بين العالَمين ، وتهبطَ إلى حيث تركت جسدها مسجَّى على السرير الخشبيّ الموضوع في غرفة النوم . فرأته معروضـــاً في باحة الدار ، والنساءُ حولَه متلفّعات بالسَّواد ، جُلوسٌ ، يندُبن ويقرعن الأيـــدي والصدور . وتفرَّسَت في الوجوه الكالحة المغبَرَّة ، فإذا بعضُها يصطنع الحزن والبكاء ، والبعضُ الآخر يستوحيها من جوّ الرهبة المسيطِر على المكان . فأرادت أن تخاطب الجمع المحتشد قائلة :

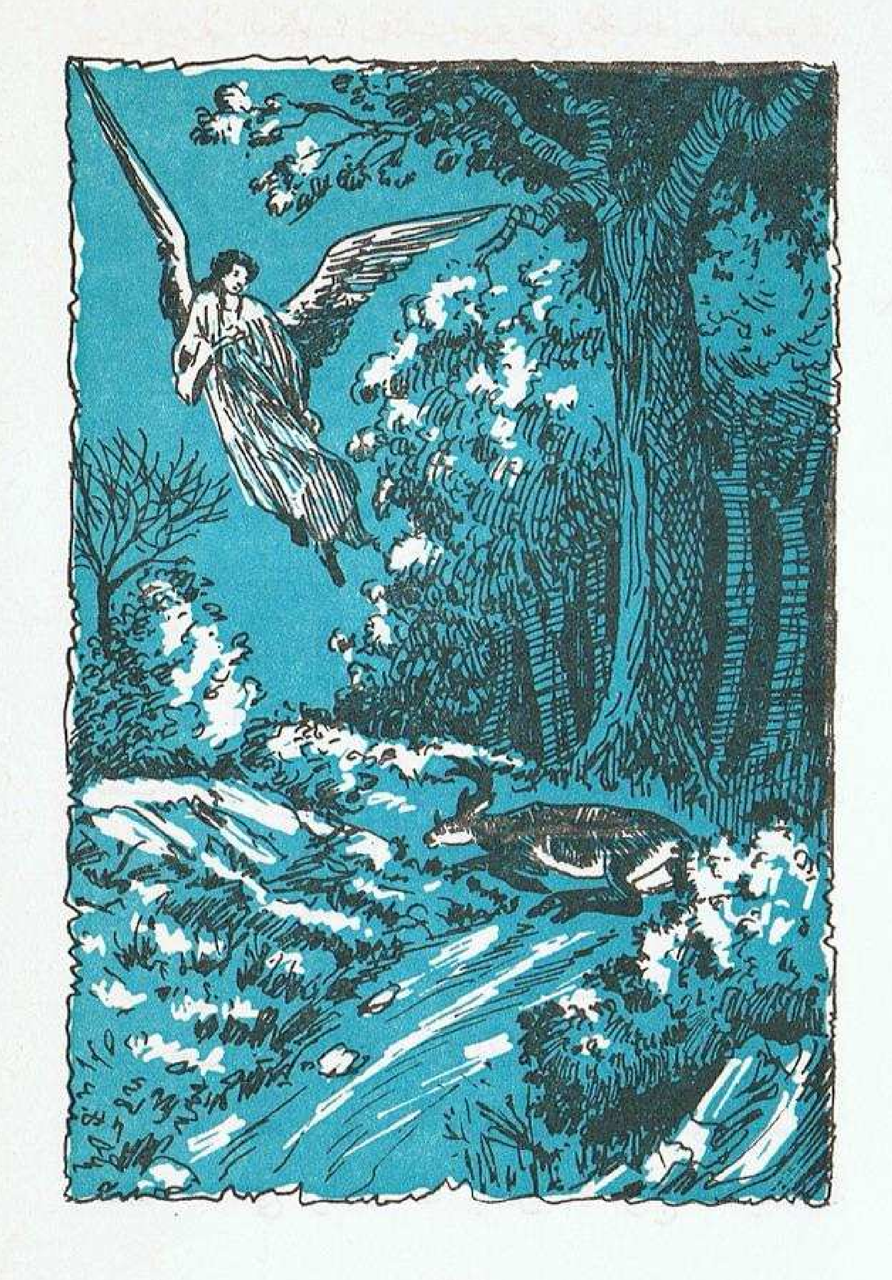
– ما أشدَّ ولعَكم بالظهور ، أيُّها النـــاس !

تعرضون موتاكم كما تعرضون أثاث بيوتكم ... وإنّ
ولعكم بعرض دموعكم يضاهي ولعكم بعرض ثيابكم ،
ويجاري حِرصكم على إخفاء عيوبكم وكتمِ
عِللكم وأعماركم ! ألا بئس الحياةُ المزدوجة التي
تحيَون !

لكنّ أحداً لم يكن مستعداً للإصغاء . فقد شُغل
بعض النّسوة بمعاينة أفواج المعزّين والمعزّيات الذين
تدفّقوا على الدار ؛ وغرق فريق آخر في حديث
الاستفسار عن أسباب الموت ، ومقدارِ التّركة
وكيفيّة توزيعها ، أو تَناول أخباراً محليّة لا عَلاقة
لها بالموضوع . وبدخول بعض النساء اللواتي تربطهنّ
بالفقيد صِلةُ الدم ، ارتفعت أصواتُ النائحاتُ
والمعدّدات ، وتوالى الشهيق والنحيب وتصعيد
الزّفرات ، حتى تحوّلت الباحة إلى شبه ساحةِ حرب
عقيبَ المعركة ، انتثرت فيها الأشلاء ، وارتفع
الأنين ، وأطلّت عليها من كلّ جانب أرواحُ الموتى
الغابرين .

ـ لِمَ البكاء ؟ قالت روحي تخاطب النّسوة .
إذا آمنتُنّ بحياةٍ بعد الموت ـ وذلك ما ترمز إليه
صلواتكنّ وجنازاتكنّ ـ فخيرٌ لكنّ أن تَحبِسن
الدموع وتُظهرن الفرح ؛ لأنّ الفقيد ، وهو بلا
شكّ من المؤمنين ، قد انتقل من دار فَناءٍ إلى دار
بقاء ، من وادي الدموع إلى جنّة الخلود .
أمّا إذا أعوزكنّ الإيمانُ ، فالفرحُ أيضاً أولى
بكنّ ، لأنّ الموت راحة وانطلاق من رَبقَة
الشهَوات وشرورِ الدنيا وأمراضها . أنتنّ تشتهين
الأطفال وتنذُرن لأجلهم النّذور ، وما يُدريكن
ما عددُ الفِتيان والفَتيات الذين ـ حين ذاقوا
العيش ـ ودّوا لو لم يُولدوا !؟ كم من هؤلاء المولودين
يُحسَب عدمهم خيراً من وجودهم ؟!

لكنّ هَمسات روحي ضاعت في الجوّ الخانق
الذي خيّم على الجمع . وانطلقت روحي من مكانٍ
حسبَتْه جحيماً ، وراحت تحلّق في أجواز
الفضاء ، حتى تراءت لها بعض الأحراج الكثيفة



البعيدة عن أجواء المدن والقرى . ولمحتْ من خلال الأشجار وَعْلاً قد بلغ أقصى الكِبَر ، منطرحاً عند جِذع شجرة ، يلفظ أنفاسه الأخيرة متطايرةً في الهواء كالهَباء المنثور . لقد فني كما تفنى الحشائش وتتساقط الأوراق . وها إنّه ينتظر العودة إلى أمّه الأرض ، ليُخصبها برُفاتـه ، فتنبُت على أصوله المتفسّخة أشجارٌ وأزاهيرُ بديعة المنظر. ها هو يتلاشى من غير نَأْمة ولا جَلَبة ، وينضمّ إلى الطبيعة الساكنة التي تخلق الطبيعةَ المتحرّكة وتجدّدها وتُنميها . فراقَ روحي هذا المنظرُ الطبيعيّ الساذَج ، وعادت إلى حيث فارقت النسوة الصاخبات ، المتلوّيات من الحزن ، المتوتّرات الأعصاب ، تودّ أن تلقي عليهنّ من سكينتها ما يهدّئ ثورتهنّ . فما راعها إلاّ موكبٌ يؤلَّف ، وجمعٌ يتألّب ، وسُرجٌ تُوقَد ، وشموع تُرفَع ، وكهنة جامدو النظَرات في ملابسَ متهدّلةٍ سوداءَ يتهادَون مترنّمين بأصوات رتيبة كئيبة . ويتهادى النّعش وراءهم مترنّحاً مضطرباً ،

والناسُ حوله شبه مذعورين ، في وجوههم قلقٌ وانقباض ، كأنّهم في موكب يوم الحشر .

فأشاحت روحي بوجهها متأمِّلة ، وهتفت بالناس بصوت لم يسمعوه :

ـ خلُّوا عنكم هذه المظاهرَ ، أيّها الناس ! لقد تسلَّطت عليكم عاداتٌ رثَّة خرقاءُ وساقتكم بعصاها كالقطيع ... وأنتم ، يا مَنْ تحيطون الحوادث التي تجري كلَّ يوم بإطار من الهول ينسجه خيالكم ، متى يأتي المصلح الذي يهدم بمِعْوَله حصونكم ، ويزيل عن العقول أغشية الجهل والغباوة ؟

وضاع صوتُ روحي في الهواء حين ارتفع صوت خطيب فتى ، وقف في الجمع واعظاً مؤبِّناً يردِّد عبارات فخمةً رنَّانة ، طرب لها السامعون وذَهِلوا عن معانيها الجوفاء .

وهمَّت روحي بأن تُسكته ، واقتربت لتضع على فمه أصابعها الخفيَّة ، لكنّها ، حين رأت الجوّ

مكهرباً والناس في شبه ذهول ، خافت أن يحدث ما لا تُحمد عُقْباه .

وعادت نفسي إلى الله هذه المرَّةَ كئيبةً مبتئسة . فإذا هو قد انتهى من تفحُّص أوراقٍ كانت تحيط به أكداساً . لكنّ وجهه كان ساكناً كسكون الأزل . وخُيِّل لها أنّه كان يَخُطّ على لوحٍ بجانبه : « لا تبتئِسوا ولا تستعجلوا الزمن . فلكلّ شيء أجل » .

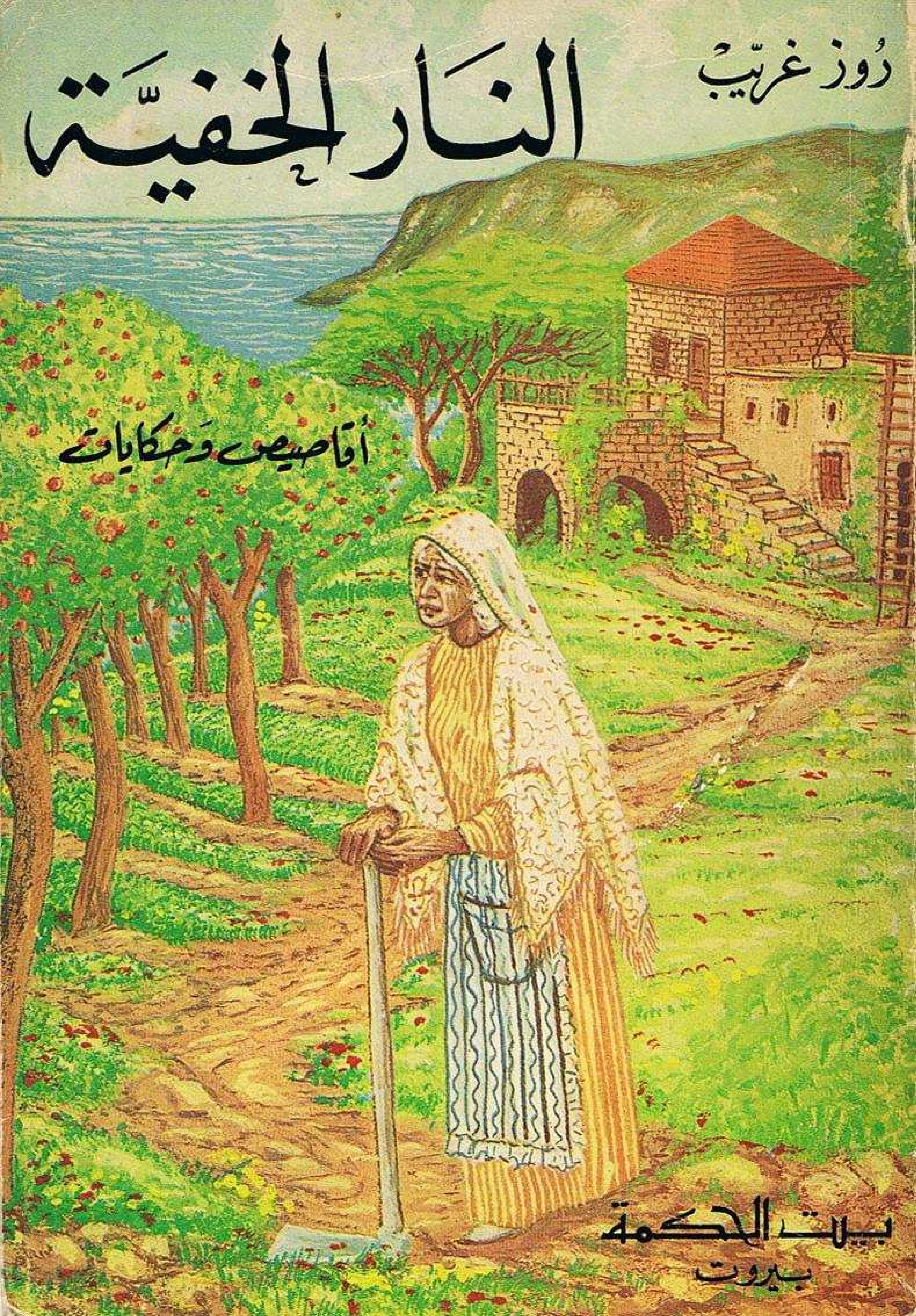
محتوى الكتاب

الصفحة

١	السجادة .	٧
٢	... وتحطم الصنم	١٩
٣	الحقيبة .	٣٣
٤	يد القدر .	٤٧
٥	حلم « أم أمين » .	٥٩
٦	ألقوا دلوكم .	٧١
٧	النار الخفية .	٩١
٨	الفدية .	١٠٨
٩	البيت القديم .	١١٩
١٠	خلف الستار الفضي .	١٣٩

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٣
على مطابع دار غندور – بيروت

٧١/٤ – ١٩٧٣


روز غريّب
النار الخفيّة
أقاصيص وحكايات
بيت الحكمة
بيروت